Telegram:@mbooks90
التحدث إلى
شوبنهاور
ليلاً
مجموعة قصصية
محمود لطفي

ملاذ
للنشر والتوزيع

التحدث إلى شوبنهاور ليلًا
المؤلف
محمود لطفي
الترقيم الدولي: 978-977-9696-01-0 رقم الإيداع: 2024/23421

© جميع الحقوق محفوظة لدار ملاذ للنشر والتوزيع

دار ملاذ لا تتبنى أيًا من الآراء الواردة في هذا الكتاب، ولا تقبل بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو نقله أو تصويره، سواء كان مطبوعًا أم إلكترونيًا، ويُستثنى من ذلك ما كان متفقًا عليه ومصدقًا خطيًا.

الطبعة الأولى: ٢٠٢٥

تصميم الغلاف:
علي إيهاب

المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:
Dr.Right

المدير العام:
عمر عماد

malaz.publishing@gmail.com
01060940772
malaz_publishing
Malaz Publishing
malazpublishing

إهداء

إلى أيامٍ.. كنت فيها وحيدًا!

(1)

الرواية

كان صديقي مطلعًا، لكنه يقدس اطلاعه؛ ما يعرفه من معلومات هي الأكثر أهمية، والأولى لأن تكون في صدارة أي تجمعات وما يتخللها من أحاديث. لم يكن يدخر جهدًا للحوار مع أي شخص؛ لقصف جبهته. إن لم ينتصر بالحجة وحسن البيان، حاول اجتذاب مؤيدين وبدأ في تحطيم الطرف الآخر بالتقليل من شأنه، والتشكيك في قدراته، والحط من قدر معرفته.

Telegram:@mbooks90

وصل به الأمر أنه حاور زميل مسيحي عن دينه ومعتقده، وتحدث بمنتهى السخافة والعجرفة. برغم هدوء زميلنا إلا أنه استمر في التسخيف والحط من قدره، وقدر ما يعتقده. ظن كعادته أنه الفائز، ولكن زميلنا كان الفائز بهدوئه أمام كل تلك الاستفزازات.

استمر في نقده وتسخيفه من كل شيء، حتى أنه سخف من بعض العلوم وأهميتها؛ لأنها ليس ضمن اهتمامات ما يقرأه.

حتى أنه سخف مني -دون أن أطلب رأيه- كوني اشتريت كتابًا تخصصيًا؛ لأن في فلسفته الخاصة أن المهندس لا يقرأ، بل يعمل بيده، برغم أن لديه العديد من الكتب الهندسية التخصصية، لكنه كان يكره -إجمالًا- ما ليس لديه!

***

عندما أطلقت مدونتي، انتظرت مشاركته، أو تعليقه، أو نقده البناء إن كان

في مقدرته! وفي مرة طبعت أحد تدويناتي لأشاركها مع زميل في أحد الأنشطة الطلابية لقراءتها ونشرها إن كانت مقبولة. وفي الطريق للجامعة أعطتها إياه، ربما أعطاني رأيًا، لكنه أمسك الأوراق باستخفاف وأخذ يهز رأسه وجسمه في أثناء قراءته مع تعمد نطق بعض الكلمات بصوت مستعار مسموع. ثم أعطاني الأوراق مكرمشة جراء الامساك بها باحتقار وعدم اكتراث.

الحقيقة، لم أكن أنتظر منه نقدًا، بل مديحًا؛ إنه صديقي ومن واجبه أن ينافقني. لن أدعي أني كنت موضوعيًا في هذا التوقيت من عمري. كيف أصبح موضوعيًا إذا اقترن الأمر بذاتي وتحقيقيها؟ قد أدعي ذلك حفاظًا على صورتي وسط ما يفرضه المجتمع من تحضر أظن أنه مصطنع.

نرغب في إضافة صورة ما، أن نظهر فيها في مظهر المتقبل للنقد بتلك الابتسامة الهادئة الودودة التي تغطي ورائها التفكير في أقسى الطرق لتعذيب ذلك الشخص الذي ينقد ذاتنا ويشكك فيها. ويفرض وجهة نظره وتجربته ويحاول إضافة تجربته الذاتية دون أي موضوعية. لكنا بالطبع نبتسم، نتقبل النقد لأننا موضوعيون.. جدًا.

إنه حتى لم ينتقدني، فقط صمت، وكأن لسان حاله يقول: إن كلماتي أثمن من أعلق على هذا الهراء الذي تكتبه.

شعرت بمهانة شديدة وتضائل جعلني أكرهه، وأتمنى له كل شرور العالم. ما هذا التناقض؛ أتمنى الخير للجميع، إلا هو؟ نعم؛ آلمني بعمق، ترك ذلك الأثر الكريه الذي لا يمكن محوه، ولا أجد غضاضة في كوني أكره وأتمنى الشر لمن سبب لي ذلك الشعور.

مرت السنوات بعد التخرج، تحدثنا وتقابلنا فيها مرات معدودة، لكن كلماته التي تنتقض كل شيء وتنتقص من كل شيء جعل رصيده ينفد إلى أن انقطع هذا التواصل المؤذي.

شعرت بسعادة تغمرني حين رأيت اسمه على شاشة هاتفي المحمول بعد سنوات من الانقطاع. في هذا اليوم تحديدًا، أعلنت على حسابي على فيسبوك عن صدور كتاب شاركت في كتاباته مع عدد من الكتاب كمحاولة أولى وخطوة بداية في هذا الطريق. تحدث وكأن السنوات لم تمر، تمنيت لو أن اتصاله لتهنئتي على هذا الانجاز البسيط. لم يذكر أي شيء عن هذا الأمر، وكأنه تعمد أن يتحدث في كل شيء وأي شيء عدا ما أعيشه في هذا اليوم، لم تكن تلك هي المكالمة المفترض أن تكون بعد تلك السنوات وذلك الألم الذي تركه بداخلي، واليوم يحدثني ليخبرني ضمنيًا أن ما أكتبه هراء وسوف يظل هراء ولم ولن يعنيه أبدًا مهما حققت وتحققت.

لم يكن ما حققته كافيًا إذن، تلك النوعية من الكتب -صاحبة الأقلام المتعددة- لا يقرأها أحد، تلك طبيعة الحال، حتى دور النشر التي تبنت مثل هذا العمل لن تبذل جهدًا للاحتفاء بمثلها. لا بد أن أتحقق من كوني كاتبًا، لا بد أن أؤكد له.. أنه مخطيء.

***

إنه أحد كتابي المفضلين، قرأت معظم أعماله وتأثرت بها، لديه الكايرزما والحضور الطاغي الذي يجعل منه نجمًا لا يقل عن أي نجم شباك. أحب كتاباته، وأرغب الوصول لتلك المكانة والشكل والهيئة.

شعرت أنه كي أتحقق ككاتب، لا بد أن يقرأ لي، ثم يثني على كتابتي، وربما يتبناني أدبيًا، لأني خليفته المنتظر، الذي سينال من الشهرة والمكانة مالم يصل إليها أحد.

الموضوع بسيط، سوف أكتب نصًا عظيمًا، سيقرأه، ثم أحقق ذاتي، ولن أحتاج بعدها لسماع أي من النقد الموضوعي إياه.

كتبت روايتي الأولى، شاحذًا أفكاري وأسلوبي بقراءة العديد من الأعمال الأدبية العربية واللاتينية والروسية وكل ما وقع أمامي من أدب. وجدتها رواية جديدة في معالجتها، كتبتها كما أحب أن أقرأ، دققتها لغويًا، راجعتها أكثر من مرة، لكني لم أجرؤ على مشاركتها مع أحد لقراءتها واعطائي رأيًا عنها. ليس لدي هذا الشخص على كل حال. ظننت أنه أسهل على الإنسان أن يتعرى أمام غريب على أن يشارك كتابته مع لا مبال. لكن لا بد أن أتحقق من ذاتي، وأثبت أن كتابتي ليست هراءً.

أرسلت له عبر حسابه على فيسبوك:

أستاذي العزيز،

أشكرك على أعمالك التي أثرت في وجداني، وتأثرت بها في كتابتي. هذا ما يخص كوني واحدًا من قرائك. لكني أرسل لك تلك الرسالة أيضًا كوني كاتب مبتدأ يرغب في رأيك ومشورتك. كتبت رواية، أتمنى لو لديك وقتًا متاحًا لقراءتها ومعرفة رأيك بها مهما كان. في انتظار ردك، وسيكون من دواعي سروري إن قبلت أن أرسلها لك.

شكرًا لوقتك، خالص تقديري.

لم يرد، كرهته مؤقتًا. ثم، سمعته في واحدة من لقاءاته الإذاعية، يتحدث عن علاقته مع مواقع التواصل الاجتماعي ووصفها بأنها ليست على ما يرام. واعتذر ضمنًا لأنه لا يمكنه الرد على رسائل القراء.

ليست هناك طريقة سوى مقابلته بشكل شخصي وأعطيه ما كتبته وأنتظر رأيه ونصيحته، هذا هو الحل الوحيد لأتأكد وأحقق نفسي ككاتب بمباركته.

تابعت كافة الفعاليات والندوات وحفلات التوقيع المخططة، بمعنى أدق راقبته منتظرًا اللحظة المنتظرة.

خلال ذلك الانتظار، حاولت التقرب للوسط الأدبي بأن أكتب مراجعات لما قراءته وأقرأه من كتب. تعجلت النتيجة التي أسفرت عن عدم اكتراث لما أكتبه.

- ما الذي ينقصني؟

وجدت تشابهًا في العديد من المراجعات التي تنال تفاعلًا، بالفعل كانت مراجعاتي مختلفة، أنا أكتب رأيي دون استخدام الكلمات السحرية التي تجني تفاعلًا مثل بديع، عذوبة، إلخ. قلت لنفسي:

- لست مضطرًا للتقليد أو المحاكاة. أنا أكتب بصوتي.

أعلن أحد جروبات القراءة عن ندوة لأستاذي الكاتب في مدينة الإسكندرية. راجعت روايتي وطبعتها، وتأهبت لذلك اليوم. كنت أحدث نفسي أمام المرآة متدربًا على الكلمات الواجب أن أقولها وأنا أطلب منه قراءة روايتي.

جاء اليوم، قدت سيارتي للإسكندرية، في الطريق الصحراوي، اختلت عجلة القيادة، ودارت السيارة عدة دورات بعد أن دست مخطئًا دواسة الفرامل.

خرجت سليمًا من هذا الحادث بفضل الله وبفضل حزام الأمان. انتظرت مرة أخرى الإعلان عن ندوة أو حفل توقيع أو جلسة مناقشة يشارك فيها أستاذي الكاتب.

لم يمر وقتًا طويلًا، وجاءت اللحظة مرة أخرى. لن أضطر للسفر، إنها حفل مناقشة وتوقيع، يديرها أستاذي الكاتب. تجهزت وتدربت، وركبت سيارتي متوجهًا للمكتبة. كان الطريق مزدحمًا على غير عادته بكثافة تعبر عن وجود عائق ما. بسرعة أبطء من المشي كانت السيارات تتحرك، وتبين السبب، سيارة على جانب الطريق الأيمن مشتعلة وأمامها سيارة نقل يبدو أنها صدمتها، والعديد يشاركون في إطفائها.

لم يكن هناك داعٍ لأن أقف، العدد الموجود أظنه كاف للمساعدة. وصلت المكتبة حيث الحفل. الجميع ينتظرون، مر الوقت طويلًا دون أن يحضر أستاذي الكاتب. عرفنا بعدها أنه تعرض لحادث سير في الطريق، لكن لا أخبار عنه. لم تمر ساعة واشتعلت كافة جروبات القراءة وحسابات المهتمين بالقراءة والأدب بجمل عزاء أستاذي الكاتب. توفى بعد أن اختلت عجلة القيادة واصطدم بسيارة نقل من الخلف، تسبب الاصطدام في حريق سريع لم يمكنه من الخروج.

***

ما زلت أبحث عن تحقيق لذاتي، وما زال صديقي ينتقض كل شيء وينتقص من كل شيء. فتحت رسائلي على الفيسبوك، تصفحت كافة الرسائل التي

أرسلتها لكتاب بدائًا إياها بأستاذي العزيز.. وجميعها بلا رد.

(2)

أظنه بكى!

أجول وأطوف في الشوارع بسيارتي كالتائه بلا هدف أو وجهة، أستمع لصوت دقات قلبي الكمد. أتوقف في ذلك الشارع الجانبي الهادئ بأفكار متزاحمة تثير الضوضاء بداخلي. أفكر، وأفكر، ثم تدمع عيني، ثم ألمح سائرًا في الطريق، برغم الظلام المسربل للشارع، أحاول أن أحبس دموعي لئلا يراها هذا السائر.

كنا صغارًا سذج، ننظر للكبار بإعجاب ومهابة؛ لأنهم الأكثر قوة وتماسكًا في هذا العالم. نالوا من الخبرات الكثير، وسحقتهم التجارب، وتركت علاماتها. لكنهم يظهرون في مظهر الحكيم المنتصر، الذي واجه بشجاعة كل شرور العالم.

كنا متشابهين في دائرتي القريبة. الغالبية كانوا ضمن الطبقة المتوسطة قبل أن تدهسها الكومباوندات وقرى الساحل وتخفيض قيمة الجنيه. واحدة من تلك التشاهبات أن الرجل لا يبكي. كيف يمكن للرجل أن يبكي؟ إن بكى، لا يمكن له أن يصبح رجلًا بعدا!

كبرنا وواجهنا، ونلنا لكمات من هذا العالم، إلى أن بكينا، وإن كان سرًا. تساءلت: كيف كان يواجه أبي هذا العالم؟ هل بكى؟ أظنه بكى!

يرى الأب أبناءه يبكون، لكن هل يرى الأبناء الأب يبكي؟ أظنها لحظة نادرة أو مستحيلة. لم أرَ أبي يومًا باكيًا، لكني سمعت نحيبه مرتين كلاهما صادمتين.

***

عاش جدي في منزلنا أيامه الأخيرة. تحسنت صحته حينها بشكل ملحوظ، وكأنه صغر عشرة أعام واستعاد بعض ما فقده من الصحة والوزن والوعي. طلب من أبي أن يساعده للقيام للحمام، وفجأة سقط!

اتصل أبي بالطبيب، وحضر من فوره، دخل الغرفة للكشف على الجسد الساكن بعد أن أغلقا الغرفة.

لم تمر سوى ثوانٍ حتى سمعت صوت نحيب أبي يتسرب عقب الباب. عرفنا حينها أن جدى مات وأنه وقف وقفته الأخيرة ليسقط.. ميتًا. لم أرَ دموع أبي حينها، فقط سمعت نحيبه.

لم تختلف المرة الثانية. كنت نائمًا في صباح يوم جمعة. فجأة أيقظتني أمي فجأة بعنف وتوتر.

- قم بسرعة. أبوك على التليفون يقول: مات، مات. ويبكي ولا أفهم منه شيئًا!

يبكي! قمت بسرعة محاولًا أن أستبين منه شيئًا إلى أن أخبرني:

- عمك مات.

عمي! مات! كيف مات؟ لماذا مات؟

هل هذا حلم؟ بالطبع هو كذلك. حدوث أمرًا جللًا بتلك الطريقة بين النوم والصحو، لا بد أن يكون حلمًا خصوصًا وأنه لا وجود لأي مقدمات منطقية لما حدث.

نعم، سمعت أبي في هذا الموقف أيضًا يبكي. لكن ما المشكلة؟ أنه الموت، ذلك

الحدث الجبار القادر على ذلك. إن لم نبك بسبب الموت، فعلام نبك؟ إن لم يبك الرجل لفراق أبيه وأخيه، فعلام يبك؟

لكن ما زال يساورني السؤال.. كيف كان يواجه أبي هذا العالم؟ هل بكى جراء كبد الحياة؟ أظنه بكى!

***

كان أبي بسيطًا، نحيا حياة مستورة تحقق لنا المتطلبات الأساسية للحياة، لكن كل ما كان يقع تحت تصنيف الرفاهيات كان صعب التحقيق بل مستحيل في أغلب الأوقات. لم أفهم مدى صعوبة عدم قدرة رجل على تحقيق طلب لأسرته حتى وإن كانت كماليات ورفاهيات إلا بعد أنا تزوجت وأنجبت. صحيح، كانت حياتي المستورة سببًا في أن أحيا حياة أفضل وأن أرتقي بمستوى معيشتي لحد كبير، لكن هناك دائمًا سقف، لا يمكننا خرقه أو تجاوزه، خصوصًا في عصر تحولت فيه الرفاهيات إلى أساسيات لا بد أن تسعى لتحقيقها وإلا وضعك الوعي الجمعي تحت طائلة الاتهام بالفشل ثم يسحقك بتصنيفات لا تعرف من بدعها. يمكن أن تصبح فاشلًا من وجهة نظر المجتمع لأن سيارتك لا تحتوي على كاشف للنقاط العمياء مثلًا!

أظنه بكى حين رغبت في شراء (أتاري ماريو) ووجد أن ثمنه أكبر من إمكانياته؛ كان ثمنه 185 جنيهًا. كان مبلغًا ضخمًا وقتها! لم أحصل على الأتاري يومها، لكن بعد شهر تقريبًا انخفض سعره عشرون جنيهًا وأصبح في المتناول.

أظنه بكى في كل مرة رغبت فيها في قضاء إجازة مصيف طويلة لكنها كانت مكلفة. في كل مرة رغبت في قطعة ملابس إضافية ولم تسمح ظروفه. في كل

مرة كنت فيها مريضًا ولا أقوى على الحركة. في أثناء دخولي لإجراء عملية الزائدة الدودية بعد أن هاجمني ألم التهابها وهدد حياتي انفجارها.

أظنه بكى حين شعر باقتراب الموت لأنه لم يترك لنا مالًا أو عقارًا يؤمن لنا المستقبل.

بعد أن كبرت، عرفت أن الرجال يبكون في صمت، يبكون سرًا؛ لأنهم رجال! كيف عرفت؟ عرفت لأني بكيت!

***

بكيت كثيرًا فرحًا في مواقف الامتنان والوصول بعد التعب، وبكيت تأثرًا لمشهد مؤثر في فيلم أو مسلسل أو مسرحية. أتذكر دموعي حين شاهدت الحب في زمن الكوليرا على المسرح خصوصًا في نهايتها حين سأل القبطان فلورنتينو أريثا:

- وإلى متى تظن بأننا سنستطيع الاستمرار في هذا الذهاب والإياب الملعون؟

بكيت في هذا اليوم الذي وجدت فيه استقالتي على مكتبي، إذ طلب مني مديري توقيعها بعد وشاية خسيسة من زميلي في العمل، زميلي في الدراسة. كان هذا الظلم غير المحتمل، كنت صغيرًا غير قادرًا على الدفاع عن نفسي أمام هذا السيل من الاتهامات. تصورت أن الحياة عادلة، وأنه من المستحيل حدوث مثل تلك الأمور التي اعتادنا مشاهدتها في الأفلام والمسلسلات أو قراءتها في الأعمال الأدبية.

بكيت حين عرفت حقيقة وضعي بالنسبة لحبي الأول، أو هكذا تصورتها.

حقيقة مهينة، أنا مجرد بديل إن لم تحصل على فرصة أفضل مع من هو أفضل. الحقيقة، كنت مستمتعًا جدًا حين اتصلت بي بعد بضع سنوات وعرفت أنها فشلت في الحصول على من هو أفضل، لكني كنت حينها أفضل، أو كنت دائمًا الأفضل، لكن ليس من أجلها. أخبرتها بتلك الحقيقة، انفعلت، بكت، وطلبت منها إغلاق الخط، بعدها بكيت. لا أعرف هل لأنني كنت وغدًا في أثناء إخبارها أنها لم تعد تمثل لي شيئًا، أو هكذا تصورت، أو هكذا تمنيت، وهكذا رفض جزءًا بداخلي ما فعلت، لكني فعلت!

بكيت حين نزفت زوجتي في حملها الأول، ومات جنينها. بكيت حين كان لا بد أن أتحمل تغيراتها النفسية بعد ذلك الحادث الأليم، أن أتحمل انفعالاتها وتصرفاتها الغاضبة من القدر طول الوقت، وبكائها، بل وأن أكون داعمًا في حين كنت أحتاج أيضًا للدعم والاحتضان.

بكيت حين خرج ابني من رحم أمه للحضانة، وزوجتي للملاحظة، وأنا أشعر بالدوان والتيه. لا أدر ما يمكنني فعله سوى الانتظار والسؤال عن حالتهم بعصبية وتوسل للأطباء والتمريض الذين اعتادوا هذا الموقف، لكنه كان أصعب ما واجهت.. أو هكذا تصورت.

كانت التغيرات الصحية التي طرأت على ابني مؤلمة؛ له ولنا. بكيت مع كل لحظة شعرت فيها بألمه وفي كل لحظة انتظار قبل الدخول للطبيب، وفي كل لحظة انتظار لنتيجة التحاليل والأشعة.

ثم جاءت الصدمة، التي لم يعد ينفع بعدها البكاء، كانت نظرات الطبيب كافية لنعرف، لنفهم، لتنحشر الأنفاس في صدورنا، وتتوقف حركة الزمن.

حاولت أن أكون مرحًا خفيفًا في أثناء طريق العودة للمنزل، كذلك حاولت زوجتي برغم تحشرج صوتها، وتلعثمها في الكلام.

طلبت منها أن تصعد للبيت مع ابننا، أما أنا سوف أذهب لمقابلة مهمة مع عميل.

تحركت في الشوارع بسيارتي كالتائه بلا هدف أو وجهة، أستمع لصوت دقات قلبي الكمد. أتوقف في ذلك الشارع الجانبي الهادئ بأفكار متزاحمة تثير الضوضاء بداخلي. أفكر، وأفكر، ثم تدمع عياني، ثم ألمح سائرًا في الطريق، برغم الظلام المسربل للشارع، أحاول أن أحبس دموعي لئلا يراها هذا السائر.

تتدحرج دمعاتي على خدي، أحاول أن أمسحها لكني أجد وجهي جافًا، كنت أبك دموعًا متحجرة، في ذلك الموقف لا يمكنني البكاء، لا بد من التحمل، هناك من يتكئ على كتفي، لكني لا أعرف كيف يمكنني التحمل، وإلى متى يمكنني التحمل. لكني استجديت الدمع حتى انفجرت في البكاء وبللت قميصي ومقود السيارة.

توجهت للبيت، كان لا بد أن أتحمل، وأن أكون داعمًا لابني وزوجتي في حين كنت أحتاج أيضًا للدعم والاحتضان.

(3)

لعبة التخيل

انتظر تلك اللحظة طويلًا، طالما تخيلها، وتجهز لها بالقراءة والمشاهدة والاستماع لخبرات الآخرين. أعد العدة وجهز ما يحتاجه من مؤن، بالفعل هو مشحون كتعبير رفاقه، ويمكن إنارة مدينة كاملة بعد ما أكله من أسماك وفواكه البحر، بالإضافة إلى الكوارع والعكاوي والفتة المضاف لها النخاع، والمخاصي التي لم يأكلها مرة في حياته، ولم يتصور أنها سوف تستقر في جوفه أبدًا. لكن في وسط الولمية الضخمة وأصناف الطعام، طلب منه أحد أصدقائه أن يجرب من هذا الطبق، أكل واستمتع. سأله صديقه:

- ما رأيك؟

- جميل جدًا.

- ما هذا؟

رد ضاحكًا مبتعدًا بوجه خوفًا من لكمة متوقعة:

- مخاصي.

جهز أيضًا برطمان من العسل مضاف إليه غذاء ملكات النحل، طلع النخل، الجينسنج، حبوب اللقاح. هذا الخليط الساحر الذي أوصى به مديره ليكون على أتم استعداد في أي وقت.

سوف يلامس هذا الجسم الأنثوي بحرية كاملة، يتوغل في ثنياته ويمرر يديه

على انحنائته كما شاء. طالما تخيل ما ينتظره من قبل حتى أن يقابل خطيبته، زوجته بعد سويعات.

حين قابل خطيبته لأول مرة، نظر إليها متفحصًا كل جزء من جسمها. حاول تخيل كل ما تخفيه ملابسها. شرع يبحث في كل المواد الإباحية عن فتيات في مثل شكلها، لون بشرتها، انحناءات مفاتنها.

تخيل كيف ستبدو عارية، كيف ستبدو معه. شرد ذهنه، حاول وكأنه يدمج صورًا، قطعة من هنا وقطعة من هنا.

بالطبع لم يخطر في باله أنها ربما لديها علامات تمدد بجلدها، آثار جروح، تصبغات الجلد، تجمعات السيلوليت. بالطبع لا، كل من شاهدهم في الأفلام الإباحية لم تكن لديهم تلك العلامات. أقنع نفسه بحتمية تطابقها مع ما تخيله لشكل النهدين والمؤخرة.. وسرها الأعظم.

Telegram:@mbooks90

أصبح يراها عارية في كل مرة يحدثها أو يقابلها، هو يرى ما تخيله، ما يريد أن يجده.

كان حفل زفافهما حماسيًا مرحًا، لم يهدأ ولم يرتح لحظة خلاله، رقص وفرط حركة جعل بعض أصدقائه وزملائه في العمل يتهماسون أنه سيفقد وعيه بمجرد أن يرى سريرًا.

لكن.. أتت اللحظة المنتظرة لأول قبلة غير مسروقة طويلة، أذابته القبلة، التي انتهت بنظرة خجل من زوجته.

شرع يستكمل ما بدأه دون تسرع، حاول أن يستمتع بكل لحظة وأراد أن

يجعلها مستمتعة بالهمس واللمس واقتحام جسمها بلمسات رقيقة.

عرى نصفها العلوي، وشرع يستكشف نهديها، لم يكن حجمهما كما تخيله، لم يكن ملمسهما كان تمنى، لم تشبه أبدًا تلك الفتاة الروسية في أحد أفلامه الإباحية المفضلة.

حينها.. فتر حماسه قليلًا، لكنه كان في ذروة شهوته برغم أن هناك ما أحبط شيئًا بداخله، ثم أكمل.

كشف عن سرها الأعظم بتؤدة وهدوء. إنها شعرت بشيء ما عند تلك اللحظة، إنه توقف عن المداعبة، أصبح هامدًا فاترًا، يلامسها بحركة ميكانيكية دون شعور ودون شغف. كان ما شعرت به حقيقة؛ إنها لا تشبه الفتاة اللاتينية في أحد أفلامه الإباحية المفضلة.

توقف عقله عن التفكير وقادته غريزته لإفراغ شهوته، عليه أولًا أن يفض بكارتها، مر الأمر سريعًا، حتى أنه انتهى بإطلاق شحنته بمجرد أن اخترق حصونها.

حاول النوم، لكن الأفكار لم تتركه له تلك الميزة، ظل يسأل نفسه:

- لمَ لم أكن سعيدًا في أثناء تلك العلاقة؟ لما تقززت حين كشفت عما بين فخذيها؟ لمَ ارتفع ذلك الجدار الهائل بيني وبينها في مثل هذا اليوم الذي يفترض أن تنهدم فيه الجدران جميعها؟

ظل يرى أمامه كل الفتيات اللائي رآهن عرايا، وصنع لزوجته صورة عارية مجاورة. صورتها ثابتة في حين تتحرك صور الفتيات سريعًا أمامه. ظل يقارن،

ويتخيل، ويعيد علاقته الأولى معها داخل عقله بتصورات مختلفة.

-ما الذي ينقصها؟

ازدادت سرعة تحرك الصور في حين دمج عقله أجزاءً من الصور المتحركة مع صورة زوجته العارية حتى تحولت لمسخ غير محدد المعالم.

كانت البداية محفزة، القبلات، الحضن الدافئ العميق، لم يظن أبدًا أن الحضن يمكن تزييفه؛ إما حقيقي ودافئ وإما مزيف وبارد.

لم يستطع تبين سببًا لفتوره السريع ونفوره من زوجته في الليلة الأولى.

***

في مراهقته حين لم يكن بلغ الحلم بعد، كان يتنافس مع أقرانه على تخيل المدرسات عرايا. إنها واحدة من منافسات التجاسر على اكتشاف المجهول في هذا السن، وخصوصًا في مدرسة للبنين، إلا أن تلك المنافسة كانت تقتصر على جملة واحدة:

- لو تعرت تمامًا، هل ستكون (حلوة)؟

ما هي حقيقة جمال الأنثى؟ وما هي حقيقة الجمال المجردة؟ هل استطاع كبار الفلاسفة الإجابة عن تلك الأسئلة ليتمكن مجموعة من المراهقين معرفتها؟

لم يعرف أحد منهم حقيقة الأسرار الكبرى للأنثى. لكن وصل أخيرًا من الكويت أول جهاز كمبيوتر ليقتنيه واحد من زملائه في الفصل، كان حدثًا عظيمًا في منطقته السكنية وفي مدرسته وربما في المدينة كلها.

اقتناء جهاز كمبيوتر أمر جلل، خصوصًا بالذاكرة الجبارة التي تزيد على 6 جيجا بايت. ما الذي يمكن فعله بتلك الذاكرة المهولة، ألعاب؟ أفلام؟ موسيقى وأغانٍ، مسلسلات؟

بدأ الزميل صاحب الكمبيوتر يمشي في المدرسة كأنه مخلوق من نور، يسير وكأنه لا يلمس الأرض، هناك العشرات من يتقربون لهذا الصبي صاحب الكمبيوتر الجبار ذو الذاكرة المهولة.

بعد أيام، أصبح له هيبة أكبر، تناقلت الأخبار سريعًا، هذا الكمبيوتر ذو الذاكرة الجبارة يحوي مكتبة أفلام سكس. الجملة في حد ذاتها أثارت هؤلاء الصبية على أعتاب البلوغ، بعض منهم بلغ بالفعل، وأصبح طفلًا بعضو منتصب.

بالطبع تقربوا منه أكثر، لم يكن غبيًا ليخطئ سبب هذا التقرب والاحتفاء، كان سعيدًا بحالة الزعامة والهالة التي ارتسمت حوله.

كان واحدًا من الذين تقربوا منه وقدموا القرابين طمعًا في الحصول على فرصة لمشاهدة لقطة واحدة من أحد الأفلام لديه. زاد التقرب، وبالفعل جاءت لحظة الدعوى لخمسة من المقربين، كان واحدًا منهم، وذلك للذهاب معه للمنزل بعد المدرسة تحت مسمى استكشاف الكمبيوتر وإمكانياته وألعابه.

كانت المرة الأولى لكل واحد منهم في معرفة ما تخفيه الأنثى، وكانت النواة لتكوين تصوراتهم والحصول على تخيلات أكثر جودة. كان ذلك بفضل المكتبة التي جمعها الأخ الأكبر لصاحب الكمبيوتر وحاول إخفاءها لكن لم ينجح في إخفائها عن أخيه.

بعد تلك التجربة المتكررة.. أصبحت لعبة التخيل أكثر دقة وتحديدًا لمناطق وأجزاء في جسم الأنثى المتنافس على تخيلها.

لم تمر فترة طويلة لتصل إلى المدينة أجهزة كمبيوتر أحدث، وارد الإمارات والسعودية بمواصفات أعلى وذاكرة أكبر حجمًا، ومكتبة أفلام أكثر ثراءً في المحتوى والجودة.

واحد من أصحاب تلك الأجهزة الجبارة، المعروف بين زملائه بصاحب الثلاثين جيجا بايت زعم أن لديه فيلم تايتانيك كاملًا دون حذف، إذ أقسم أن الفيلم الموجود في نوادي الفيديو محذوف منه أكثر من ساعة فعل خلالها ليوناردو دي كابريو كل الأفاعيل وارتشف من رحيق كيت وينسلت طول كل تلك المدة على الشاشة. خلالها انتشر الخبر، وأقسم العديد من الزملاء حينها أنهم شاهدوا الفيلم وأن المحذوف منه أكثر من ساعة ونصف، ليقسم بعدها مجموعة أخرى بأن المحذوف ساعتين وأنهم أيضًا شاهدوه.

مرت السنوات، كانت خلالها المكتبات على أجهزة الكمبيوتر المصدر الوحيد في حين لم يكن لدى الجميع إمكانيات مادية تتيح لهم شراء جهاز كمبيوتر. ثم انتشرت أجهزة الهاتف المحمول، وصولًا لتلك المزودة بإمكانية تخزين وتداول مقاطع فيديو.

أصبحت مشاهدة مقطعًا من فيلم إباحي أجنبي أو مقطع من فيديو يحمل عنوان فضيحة أمرًا عاديًا لا يحتاج لعمل ترتيبات وخطط بالمقارنة بالكمبيوتر.

لم يستطع أن يتوقف عن لعبة التخيل، حتى بعد أن أصبح شابًا، تخرج في الجامعة، أنهى خدمته العسكرية، ومضى في مساره الوظيفي بنجاح. إلا أنه من

الصعب أن تفلت أنثى من أن تصبح لعبته في التخيل.

أصبح من الصعب أن يمر يوم دون أن يتصفح عددًا من المواقع الإباحية؛ لمعرفة ما الجديد، وكأنه يتصفح شاشة تغير أسعار الأسهم في البورصة أو تغير سهر صرف العملات. بالطبع كان يُمتع نفسه في أثناء التصفح منتهيًا بإطلاق شحنته بعد أن يستقر على فيلم أو مشهد لا يمكنه مقاومته.

أصبح لديه مخزون من الأشكال والأحجام والألوان تسمح له بالتخيل الدقيق، وأن يصبح فاعلًا في أثناء تخيلاته بدلًا من مشاهدًا. كان تخيله لنفسه فاعلًا حافزًا لأن يصبح فاعلًا في الحقيقة. برغم ممارساته شبه اليوميه، وعقله الذي أصبح الجنس هو محور تفكيره، كان لديه جزءًا بداخله يحرم ويجرم العلاقات خارج إطار الزواج؛ لذلك لم يجرؤ أبدًا على تلك المغامرة.

كانت زميلته في العمل، واحدة من هؤلاء اللائي استخدمهن في لعبته. لكن بعد تفكيره في الزواج، صنع ما يشبه بالبطولة أو الدوري ما بين زميلاته ومعارفه وأقاربه وموظفات البنك ونادلات الكافيه وكل من تحمل صفة أنثى في سن مناسب ولم يسبق لها الزواج. فازت في كل المنافسات، خصوصًا وأنها لم ترفض تقربه منها.

مرت العلاقة بكل المراحل التقليدية الدرامية، وانتهت بأن تقدم لخطبتها، إلى أن تم الزواج.

***

أعد العدة وجهز ما يحتاجه من مؤن، بالفعل هو مشحون كتعبير رفاقه.

الليلة، سوف يتزوج للمرة الثانية بعد أن انفصل عن زوجته الأولى بعد سبعة أشهر. لم تتحمل نظرته المزدرية لجسمها، ولا لأن تقتصر علاقتهما الحميمة على سكب مائه دون إشباعها هي الأخرى. رفضته، ولم يكن هو الآخر مرتاحًا أو سعيدًا في علاقته معها. انتهى كل شيء سريعًا، دون ألم، دون ندم، دون ذكرى. انتهى لأن شيئًا لم يبدأ من الأصل.

الليلة، سوف يرى إن كانت الفائزة باللقب في بطولته الثانية للعبة التخيل تستحق حمل اللقب!

(4)

التحدث إلى شوبنهاور ليلًا

بعد أن أحشر الطعام بلغًا في جوفي، أجرع شربة ماء، ثم أدلف إلى الحمام واضغًا إصبعي في جوفي، لأتقيأ.

حتى وإن لم أفعل، أصبح جسمي مبرمجًا على رفض الطعام وارتجاعه. برغم أن هذا الأمر يحدث -تقريبًا- باستمرار، إلا أن وزني ما زال زائدًا. لست سمينًا للحد المزعج، لكني أكره وجهي المنتفخ، وجانبي بطني كنصفي كرة يصنع من مظهري أضحوكة. أنا من يضحك ويسخر من مظهري، ربما هناك من يرى ذلك ويسخر في سره.

تنتابني أفكار سوداوية في الصباح، كذلك أري كوابيس كل ليلة في في أثناء النوم وخلال محاولاتي لهزيمة الأرق. دائمًا أرى تلك الوجوه المحدقة بي من فوق الباب أو الدولاب. أراها كل يوم تقريبًا، أفرك عيني حين أراها؛ ربما هي نتيجة خداع بصر، لكنها لا تتبدد بل أحيانًا تتحرك في تؤدة في أرجاء الغرفة دون أن تتغير ملامحها.

حاولت أن أتأقلم على رؤيتهم، لكن في كل مرة أصاب بالرعب والهلع، تزداد ضربات قلبي، يضغط ثقل رهيب على أنفاسي، لكني تأقلمت على وجودهم.

أصبح رعبي مملًا؛ لتكراره. أحاول أن أشغل عقلي بأي شيء حتى يهدأ وأنام. في معظم الليالي.. أتصفح الفيسبوك على هاتفي المحمول. هناك دائمًا ميت ينعيه شخص ما، مريض يحتاج للدعاء، وغد دمر حياة شخص ما. هناك من هو

راضٍ وسعيد، سواء يقصد ذلك فعلًا أو يدعيه. هناك من يلعن الحياة والبشر والتاريخ، وهناك من يشارك أقولًا مأثورة أو مقولات مكتوبة على صور لفنانين.

ظننت في البداية أنها مقولات مجتزئة من حوار في عمل فني. إلى أن انتشرت مقولات منسوبة لنجاح الموجي في أعماله مثل 131 أشغال أو أربعة في مهمة رسمية. أعرف تلك الأفلام جيدًا، تشككت في كون تلك المقولات حقيقية وشاهدت الأفلام مرة أخرى، ووجدت أنها مقولات ملفقة. تأكدت أن صور الفنانين ليست إلا للفت الانتباه والتحفيز على التفاعل والمشاركة. وأن معظم المقولات المنسوبة لشخصيات فنية أو أدبية أو تاريخية أو دينية، ملفقة؛ لإثبات شيءٍ ما في نية صاحب المصلحة.

مرت الأيام بروتينها السئم، إلى أن قرأت مقولة لرجل شكله مخيف بعض الشيء: "إن الحياة تتأرجح كالبندول بين الألم والملل"، مذيله باسم «آرثر شوبنهاور» ومضاف له لقب «فليسوف التشاؤم».

استفزتني المقولة واسمه ولقبه، إنها تصف حياتي. تعجبت من لقب فليسوف التشاؤم، إنه يذكرني بإمبراطور الفيزياء وشبح الكيمياء وقيصر الأحياء!

كيف استطاع هذا الرجل توصيف حالتي؟ أم أنها حالة متكررة؟ تأكدت أنه صاحب المقولة فعلًا، وتأكدت أنه صاحب الصورة المخيفة؛ تصورت في البداية أنها ربما صورة لشخص تألم طويلًا ومات بعد أن مل الألم.

تساءلت.. ما الذي واجهه ليُلقب بفليسوف التشاؤم؟ أي معاناة جربها ليقل هذا الكلام طالما أنه لم يعِش حياتي! الرجل استفزني لمعرفته ومعرفة أصل أفكاره، ربما كان ما قاله مجرد أكل عيش مثل العديد من الأفكار المنتشرة التي لا يؤمن

بها أصحابها حقًا. أومن أن ليس كل ما يقال حقيقي وكل الأفكار ليست بالضرورة أن تعبر عن ماهية أصحابها.

بالفعل بدأت أبحث عن فلسفة هذا الشوبنهاور، إذ استمعت لبعض أجزاء من فلسفته على موقع يوتيوب وبعض الكتب أو ملخصاتها على بعض تطبيقات الموبايل ثم شعرت برغبة عارمة لقراءة كتب كاملة من أعماله.

هناك العديد من المقولات والمقالات والكتب التي أضاع هذا الفليسوف عمره ليكتبها منظرًا عن المعاناة والألم وحقيقة السعادة. توغلت أفكاره في أعماقي، وزادت سوداوية حياتي. هناك من يبرر تلك المعاناة، هناك من يستحسنها ويراها شيئًا جيدًا!

إنه يقر بعدم وجود سعادة وأنها مجرد اختفاء أو خفوت مؤقت للألم أو كما يصف أن السعادة والرضا عن نوع من الألم تم إنهاؤه.

أطن أنني أدمنت قراءة كتاباته، أو الاستماع لحلقة تتحدث عن قضية فلسفية من وجهة نظره في كل ليلة في أثناء استلقائي في سريري محاولًا النوم في غرفتي الكئيبة.

إنها مجرد جدران.. ما المميز فيها؟ ولمَ ندفع أعمارًا لنتملكها؟ نميزها بالألوان والنقوش والإضاءة واللوحات الفنية، وربما نعلق عليها ساعة لمتابعة ما تبقى من العمر الضائع. نشعر مع الجدران بالزهو والإنجاز وأحيانًا الراحة. لكن هل هناك جدار يمنع القلق، والخوف، والأرق، والتفكير الزائد، وهؤلاء الذين يخرجون من الكوابيس للعبث بما تحيطه تلك الجدران؟

قبل دخولي للسرير كنت أتأكد من فراغ بطني من الطعام، بعد محاولتين أو ثلاث إضافيتين لتقيؤ ما تبقى بداخلي. لا أتحمل شعور اختمار الأكل بداخلي مهما كان الأكل بسيطًا. إنه يشعرني بالتخمه؛ شيء ما بداخلي يضغط عليّ كما تضغط الأفكار على عقلي.

في ليلةٍ لا تختلف عن مثيلاتها، رأيت في منامي أني أقف وسط حشود متزاحمة متلاحمة، مشهد مهيب عبارة عن رؤوس متراصة في مستوى النظر. لا أعرف منهم أحدًا، لكني بدأت أتبين بعضهم؛ هؤلاء من خذلتهم، هؤلاء من خذلوني.

للأعلى قليلًا، كانت السماء حمراء، مشتعلة، ولا مفر. الكل تفحم فجأة، وتحول اللون للسواد القاتم. تساءلت: هل هذا هو العدم؟ لو كان العدم، كيف إذن أمكنني التفكير، وأنا غير موجود!

ثم أفقت مفزوعًا لأرى الوجوة التي تحملق في من فوق باب الغرفة أو الدولاب. لكن كان هناك شخصًا كاملًا يقف بجوار الباب.

فلما كانت الليلة الأولى..

كان وجهًا أعرفه، شاهدته مرارًا في الأيام الطويلة الماضية. إنه شوبنهاور شابًا. يظهر بنفس الهيئة بصورته المرسومة في مرحلة الشباب. برغم أني عرفته، سألت:

- من أنت؟

- أنت تعرفني وطلبت حضوري.

- هل هذا ممكن؟

ابتسم، واردف:

- ماذا تريد مني؟

- لا أعرف أو الحقيقة لست متأكدًا مما أريده. لكن هل لديك تفسيرًا عن أسباب معاناتي؟

- أظنك أصبحت تعرف أن المعاناة هي الهدف المباشر والأساسي للحياة.

- هل تؤمن بهذا حقًا؟

- بالتأكيد.

- أخبرني عن معاناتك.

- أنا هنا لأسمعك أنت.

- مممم.. انقلبت حياتي فجأة وتحول كل شيء. كان لدي عمل وزوجة وبيت.

- ثم...؟

- ثم لا شيء، ضاع كل شيء.

أماء برأسه أن أكمل.

- أجبرت على ترك عملي بعد الاستحواذ على الشركة التي أعمل بها. كانت نتيجة طبيعية بعد وفاة رئيس مجلس الإدارة وصاحب نسبة الأسهم الأعلى،

وتصعيد ابنه لإدارة الشركات، لكنه لم يكن مؤهلًا.

- التاريخ ما زال يدور إذن، الزكائب الفارغة تأخذ اهتمامًا، لتسبب لنا كثيرًا من المعاناة.

ابتسمت لسماع تعبيراته اللاذعة، وأكملت:

- كان عليه أن يتخذ قرارات وإن كانت خاطئة. أصدر أوامر، وصدق على قرارات، وأعاد هيكلة المنظومة حتى وإن كانت ناجحة على وضعها. لم تنجح محاولاته، قفز العديد من مديري وموظفي الشركة من المركب قبل أن تبتلعهم مياه الفشل. كانت فرصة لواحدة من الشركات المنافسة أن تعرض الاستحواذ على الشركة بمبلغ لا يمكن رفضه. انتشر الخبر سريعًا، لكن بالنسبة لمن تبقى من مديرين وموظفين، لم يكن المبلغ المعروض ذو حيثية بالمقارنة بما عُرض على الأب أكثر من مرة. لكن بالنسبة لشركة تسقط بتسارع ملحوظ، كان المبلغ المعروض كفيلًا لجعل مجلس الإدارة يفكر في الأمر. إنه الخروج المشرف، إنها النهاية التي لم يكن يتخيلها الأب المؤسس. برغم رؤيته وعبقريته، إلا أنه لم يفطن لكون تصعيد الوريث غير المؤهل سوف يفسد كل شيء، كان مؤهله أنه ابنه.. فقط.

كانت عيناه ثابتتان، لم أشعر فيهما بأي تعاطف مع قصتي. لكني أكملت:

- حاصرتني الأقساط والالتزامات المادية. حاولت تأمين التزاماتي لفترة لحين إيجاد فرصة عمل مناسبة. لم يكن الأمر سهلًا، لست ذلك الشخص الذي تتهافت عليه الشركات، لذا كان من الصعب إيجاد فرصة بنفس المستوى. ضاق الحال، وأصبح لازمًا الاقتصاد في المصاريف. وكانت أحد الحلول أن أبيع السيارة. لم

تتحمل زوجتي ذلك الوضع الجديد، اتهمتني بالتقصير، ولمحت بفشلي. كانت السيارة مهمة جدًا بالنسبة لها. لم تتحمل أن تكون حياتها وتنقلاتها من خلال مواصلات عامة أو سيارة أجرة. بعد عدة محاولات فاشلة للحصول على عمل، تحدثت معها عن الأوضاع كاملة، وأعطيتها الاختيار للاستمرار معي أو تركي. لم تفكر، وكأن القرار كان متخذًا من طرفها. اتفقنا على اجراءات الطلاق، برغم أني لم أوقع على قائمة منقولات، إلى أني أعطيتها كل شيء.

- ما هي قائمة المنقولات؟

- إيصال مسجل به كل ما هو موجود في البيت، وتستحقه المرأة كاملًا بعد الطلاق أو موت الزوج. ويمكنها أيضًا استخدامه في الضغط على الرجل وتهديده بالسجن في أي وقت متهمة إياه بتبديد مقلاة بيض أو ملعقة شاي.

بدا عليه بعض الاشمئزاز. وأكملت:

- كان كل ما في المنزل من حقها، لكني تصورت أنها سوف تترك شيئًا لي في مثل تلك الظروف، ولم تفعل. لكنها تركت لي ماكينة القهوة الأمريكية فقط بعد أن نظرت لي نظرة شفقة ومَنٍّ.

- إنها عاهرة! تمامًا مثل أمي.

نظرت له بضيق، وشعر بذلك دون أن تتبدل ملامحه. أعرف قصته مع أمه وحجم خلافتهم من بعد انتحار أبيه، وانقطاع صلتهم إلى وفاتها، لكن لم أتصور أنه سيصفها بهذا الوصف. قال:

- إنها ستعاني كما جعلتك تعاني، إن التاريخ تكرار دوري للمعاناة.

تحولت ملامحه، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة الثانية..

الليل طويل، الوحدة قاسية، تعزف على أوتار المعاناة والحزن، يتفاقم حينها الاكتئاب والشعور بالخواء. ما بين كل الأفكار السوداوية، أخشى خلالها الموت وحيدًا. يصيبيني الرعب حين أشعر بوخزٍ بسيط، أو حين يهاجمني السعال وأشعر معه أن أنفاسي تنقطع. ربما يكون أحد تلك الأنفاس هو النفس الأخير!

فجأة، ظهر أمامي، لكنه أكبر سنًا، لم تكن ملامحه حادة مثلما تظهرها بعض صوره، إنها سوالفة العريضة المسماة بقطع لحم الضأن، وشعره رأسه الجانبي الكثيف، لكن ملامحه القريبة كانت أقرب للملامح الطفولية على نقيض الصور. بدا عليه بعض القلق، لذا سألته:

- لماذا أنت قلق؟

- لست قلقًا.

- أها.. إذا لم أجد شيئًا يقلقني بهذا في حد ذاته يقلقني.

قلتها وضحكت، وتصورت أنه سيضحك أو سيبتسم حين أردد مقولته، لكنه نظر تلك النظرة التي لا يتمنى أحد أن يراها في عين أي شخص.

ارتبكت، وقلت:

- أعتذر، كنت أحاول أن أكسر الجليد في حديثنا.

- أتحدث إليك في غرفة نومك ليلًا، وأنت مستلقٍ في سريرك، مرتديًا منامتك،

وتتحدث عن كسر الجليد!

تلى ذلك صمتٌ لم يطل، ثم أردفت:

- لا أطمئن كثيرًا للنوم، أستشعر خيانة الحياة.

- هل ترى أن الموت خيانة؟

- أن أموت وحيدًا بينما تتعفن جثتي، ولا يهتم أحد بمعرفة سبب غيابي، تلك هي الخيانة.

- ليس لحياتك أو مماتك معنى، إن إرادة العالم تهتم باستمرار النوع دون اهتمام بك أنت.

- إذن لتتعقل تلك الإرادة التي تصفها.

- إذن أنت تنتقض أفكاري!

- لكل فكرة نقيض وهذا ما يصنع الأفكار الكبرى!

- اللعنة، هذا ما قاله الدجال هيجل!

ثم أردف قائلًا:

- عليك أن تستدعي ذلك الحمار الميت في المرات القادمة. أوه.. إنه ميت فعلًا الآن! وأنا أيضًا ميت.

ضحكت بشدة، وبدا على وجهه المتجهم بوادر ابتسامة. لكني اعتذرت له، واستأنفت الافصاح عن مخاوفي عن النوم والموت وحيدًا إلى أن اعترفت أني

فكرت في الانتحار لكن دون أن أجرؤ على التنفيذ.

- من حقك أن تختار بين الموت أو الحياة. إنها إرادة الحياة التي زرعت بداخلك الخوف من الموت وعدم الجرأة على إنهاء حياتك. إنها تجربة تريد من خلالها طرح أسئلة وانتظار أجوبة، لكنها خرقاء؛ لأنه بانتحارك سوف يتلاشى وعيك الذي سأل السؤال. كيف ستتلقى الإجابات؟

صمت لثوان، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة الثالثة..

لم يختلف يومي ولا ليلتي، وجاء وظهر في أريحيه وكأنه في بيته. حتى أني توقعت أنه سوف يجلس بجواري على السرير. لكنه سأل في فضول:

- ماذا تفعل في يومك الطويل؟

- العمل، الأكل، التقيؤ، النوم، الهروب من الكوابيس، التسكع.

- أتعمل؟ ظننتك لا تعمل بعد أن حكيت عن تركك للعمل.

- نعم، أعمل الآن عملًا حرًا.

- ماذا؟

- هناك العديد من المهارات التي أبيعها للغير من خلال عملي الحر.

- هل هي مربحة؟

- أحيانًا، وأحيانًا أحصل على ما يبقيني حيًا أو خارج السجن.

- هل تحقق ذاتك؟

- لا أعرف، أظن أني راض أو متأقلم.

- الإنسان مخلوق غير قابل للإشباع، كل إشباع لرغبة ينتج عنه رغبات جديدة لا نهائية.

- ماذا لو زهدت؟

- أظن أن ما زال لديك ما يجعلك حيًا وما ترغب في تحقيقه.

- أحيا لأني أرفض مغادرة هذه الدنيا بلا ذكرى. ربما سوف يكتب عني البعض بعض الكلمات المرثيات لساعة، لساعات، ربما يوم. ولكن هذا هو شان الدنيا؛ نسيان وتناسي. على الأرجح بعد موتي وبعد الكلمات التي سوف يكتبها هؤلاء وهؤلاء، ربما أظهر في الشكل الذي تمنيته؛ فالجميع رائعون حين يموتون.

قضب جبينه، وسأل بصرامة:

- هل تُلمح لشيء ما؟

تفكرت، وحينها أدركت أنه ربما أسقط كلامي على نفسه. حينها أخبرته:

- لم أقصد إطلاقًا ما فهمته.

قال بتحدٍ:

- بعدما عاش المرء طيلة حياته في صمت، جاؤوا في النهاية بالطبول والأبواق!

هززت رأسي أي نعم، لكن ما الذي أفعله حتى يأتون في النهاية بالطبول والأبواق، أو ليضعون ورودًا على قبري، إن أتى أحد!

ابتسم ابتسامة هادئة، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة الرابعة..

ظهر في أريحيه تماثل الليلة السابقة. عرفت بظهوره حين تردد صوته في عقلي:

- هل تأكدت بنفسك أن التاريخ يدور والمعاناة مستمرة؟

لفت انتباهي أن هناك شيئًا غريبًا في مظهره، كان أكبر سنًا، لكن هناك ما لم أسطتع تبينه. ثم عرفت، إنها ملابسه. كان يرتدي سترة أرجوانية فاقعة اللون، شعرت أني رأيتها من قبل.

- ماذا تقصد؟

- ألم تتأكد أنها تعاني؟

نظرت إليه بنظرة متسائلة، ابتسم بشكل غريب، حتى أن لغة جسده كانت مختلفة. لكني أجبت عن سؤاله:

- نعم، تأكدت. لدي حساب مزيف على فيسبوك، لأنها تحذر حسابي الأصلي. حاولت أن...

قاطعني متسائلًا:

- ما هذا الفيسبوك؟ وما هو حسابه؟

- إنها قصة طويلة، لا بد من خلالها أن أحكي لك تاريخ مائة وخمسون عامًا. لكن باختصار، اخترع الهاتف بعد وفاتك، ثم السيارات والطائرات والقنبلة الذرية ومركبات الفضاء والحواسيب والإنترنت والأقمار الصناعية والهوتف المحمولة والذكاء الاصطناعي.

- ما ماهية تلك الأشياء؟

- كلها تصبو لحياة أسهل من خلال سرعة الوصول في المكان والزمان، والإنجاز دون معاناة. إنها تحقق حرية الوصول لأي مكان والتواصل مع أي شخص آنيًا.

- وهل حققت القنبلة الذرية تلك الحياة الأسهل؟

- بالطبع لا.

- هل كان محقًا؟

- من؟

- هيجل.

- ألن تنعته بالحمار الميت؟

- لا.. أظن أن ما قلته يثبت تفسيره بأن التاريخ هو تقدم للعقل المطلق. لكني أصر على أن ما قدمه للعالم عبارة عن «سمكة حبّار» تضع فوق نفسها سحابة من التعتيم.

صمت كأنه يراجع نفسه، ثم نظر ناحيتي وطلب أن أكمل حديثي:

- عرفت من منشور كتبته على صفحتها، كان متاحًا للجميع، تحكي فيه قصتها مع زوجها الجديد، وكيف نشأت علاقتهم المثالية، وعن توقيعه على قائمة المنقولات، لكنه سرق كافة المنقولات بعد أول خلاف، حتى مشغولاتها الذهبية، واتهمها واتهم أهلها بتزوير توقيعه.

قال بخبث:

- ربما كانت تلك المنقولات هي منقولاتك التي تركتها لها طواعية!

- لا أهتم، إنها ملكها.

- أظن أن على بصرك غشاوة أو أن ذكائك معتم.

- ماذا تريد أن تثبت عن المرأة؟ أعرف ما كتبته عن المرأة وكيف تراها. لكنك لن تسطع إثبات ذلك من خلالي. ولا تحاول من فضلك!

تلون وجهه باللون الأحمر، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة الخامسة..

ظللت متوترًا بخصوص الليلة السابقة، خصوصًا وأن نظراته ومظهره وتحركاته كانت غريبة. تمنيت ألا يظهر في تلك الليلة؛ أصبح لقاؤه مرهقًا.

لكن هناك من ظهر، لكن لم يكن هو. بعد أن دققت النظر، عرفت أنه هو، لكن هناك تغيير كبير، الفم ملطخ بألوان حمراء، ونصف وجهه السفلي ملون باللون

الأبيض، بينما يرتدي نفس السترة الأرجوانية التي ارتداها في الليلة السابقة بل إنها بدلة كاملة. هل هذا صحيح؟ إنه يضع مكياج الجوكر!

حين أدركت ذلك في عقلي، وجدته يبتسم تلك الابتسامة العريضة المصيبة بالغثيان والرعب، ونطق كالفحيح:

- لا أحاول إثبات أي شيء من خلالك. أنت الذي تريد أن تجد مبررات لمعاناتك، وأظن أنك عرفت أنها إرادة الحياة التي لا تهدأ.

- أنت بنيت افتراضتك بناء على حياتك وبيئتك.

- هذا ما يفترضه ويفسره أي عقل ضحل!

- إذن أنت تفهم العالم بكل متغيراته؟

- حاولت أن أجد تفسيرًا.

- ماذا تعرف عن العالم؟

- أعرف أن العالم كل ما هو ليس ذاتًا. العالم الحقيقي ليس ما تتصوره، إنها حواسك القاصرة التي تشكل تمثلًا لهذا العالم.

ظللت صامتًا متفكرًا، لكنه أردف بقسوة:

- هل ستظل منتظرًا للموت معتزلًا لكل مظاهر الحياة؟

- هناك ما يدفعني للبقاء، للاستمرار، أحاول أن أكبح جماحي لئلا أفعل كل تلك الأشياء الغريزية.

- هل جربت الفن؟

- الفن!

- نعم، الموسيقى الخالصة تعبر عن الفرح والحزن بذاته.

لم أرغب بالدخول في جدل حول الموسيقى، إنه لن يدرك ما آلت إليه الموسيقى ولن يستوعبها. لذلك سألت سؤالي الفضولي الذي وددت أن أسئله منذ ظهوره على هذا الشكل لكنه استفزني بتساؤلاته:

- لما تضع تلك المساحيق وتلون وجهك بتلك الألوان؟

- هل تعرف أن هناك بلاغة غير واعية في استعمال كلمة person للتعبير عن إنسان في كل اللغات الأوروبية؟

- ماذا تقصد؟

- إن معناها الحقيقي هو قناع، كالذي كان يدرتيه الممثلون على المسرح؛ لا أحد يظهر نفسه كما هو. جيمعنا نظهر بصور مختلفة إلا أن الباطن هو الجوهر.

- عندك حق، أنا أيضًا أضع قناعًا لكن دون مساحيق.

- أفصح عما بداخلك.

- إنها لم تتركني، أنا من تركتها، أو أنا الذي أجبرتها على تركي كما أُجبرت على تركي للعمل. إنها فقدت ثقتها في العالم كله بسببي، لذا لا يمكن أن ألومها على أي شيء.

صمت طويلًا برغم ما بدا عليه من محاولات لأن يقول شيئًا، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة السادسة..

جائني بمظهره الودود، دون مساحيق ودون بدلة أرجوانية، وسألني مباغتًا:

- هل تعيش دون أصدقاء؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأني خذلتهم جميعًا، أراهم في كوابيسي لكني أراهم بجواري دون لوم منهم.

- ما الذي تتوقع حدوثه إن قابلتهم الآن؟

- لا أعرف، أظن أنني سأواجه خيبة أمل.. أستحقها تمامًا.

- أيًا كان.. أي لقاء بين رجلين كانا صديقين في شبابهما، ومن ثم التقيا مرة أخرى بعد أن فرقهما عمر، فإن الشعور الأكبر الذي سيراودهما لحظة اللقاء سيكون خيبة أمل كاملة بالحياة برمتها. الأمر غير متعلق بك وحدك!

تحرك في الغرفة بتؤدة، وتكلم بهدوء كمن زهد الكلام:

- توقف عن اعتزال العالم ولعنه، هاذا ما فعلته من قبل، لا أظن أنه كان قرارًا سديدًا.

ابتسم برضا، وتلاشى في الظلام.

فلما كانت الليلة السابعة..

انتظرته طويلًا، لكنه لم يظهر. حاولت استدعائه من خلال القراءة المطولة لمؤلفات كتبها أو كُتبت عنه، لكنه لم يظهر. استمررت في القراءة إلى أن قرأت ما كتبه بعنوان اللحن الختامي:

إنني أقف الآن مرهقًا عند نهاية الطريق

جبيني المنهك لا يكاد يحمل إكليل الغار

غير أني أنظر في سعادة

إلى ما صنعته غير مبال بما يقوله الآخرون

مرت بعدها ليالٍ طويلة، لم يظهر، لم يتردد صوته بداخلي. حاولت حينها الخروج من عزلتي برحلة لصفاء الذهن، اخترت واحة سيوة. أفرغت ذهني من كافة المؤثرات والمشتتات. في أثناء تجولي بمعبد أمون، انتبهت للرمال بجواري، كانت تُشكل وجهًا أعرفه؛ وجه آرثر شوبنهاور مبتسمًا.

(5)

الاعتراف

- من هذا المزعج المتصل في هذا الوقت؟

جرس الهاتف مرة أخرى، من الضروري أن يكون الأمر مهمًا لهذا الإلحاح.

رفع سماعة الهاتف في عدم اكتراث، وجائه صوت خالد ابن أخيه:

- عمي، هل يمكن أن تأتي للبيت حالًا؟

- هل أنتم بخير.

- أبي.. تعالَ لترى أبي.

- أنا قادم حالًا.

إن منزل أخيه على مسيرة ربع ساعة مشيًا، هرول حينها لاختصار الوقت في حين قابل هذا الصوان الذي يبيع حلوى المولد النبوي الشريف، توقف لحظة ناظرًا لحلوى الفولية التي يعتبرها أحلى ما في هذا العالم، لكن السكرى منعه.

تقطعت أنفاسه برغم صعوده للدور الثاني، لكن الأمر أصبح صعبًا مع تقدم سنه.

رن الجرس، فتح خالد الباب، احتضنه عمه حين رأى علامات التيه على وجهه. برغم حنان وطيبة عمه، إلا أنه كان يشعر دائمًا بحاجز، كأنه يلفظه طوال الوقت.

- تماسك، أنت رجل الآن، لا تبكِ.

دلف من الباب متلهفًا لرؤية أخيه، لكنه تباطء حين وصل لباب غرفة أخيه، دخلها بتؤده حيث يرقد. اعتاد رؤية أخاه راقدًا هزيلًا في سريره حين يشتد عليه المرض وينزف، يتطلب الأمر في كل مرة دخوله المستشفى وخروجه بعد أن تستقر حالته.

لم تكن تلك المرة مثل كل مرة. هناك شيءٌ يقبع في الغرفة، حتى أن قطع الأثاث الدمياطي المزين بالأويمة، ظهرت نقوشها كأنها كائنات أسطورية تقف فوق رأس أخيه، تترقب أمرًا ما.

الغرفة مزدحمة عن آخرها بالأدوية المتراصة بجوار السرير، وعلى التسريحة، وعلى منضدة صغيرة أُضيفت للحجرة مؤخرًا. بالإضافة إلى كراسٍ خشبية موجودة بالحجرة لتستوعب زوار الحاج فؤاد؛ إنه من هؤلاء المحبين للجميع، والذي يحبه الجميع؛ لصلاحه وطيبة قلبه، وكرمه في عمل الخير.

دخل الغرفة، وقبَّل جبهة أخيه، وجلس بجواره يطمئن على حاله.

- الحمد لله يا فهمي. كنت أراك، نرانا سويًا.

- كيف كنت تراني؟

- أمامي، كأنني أشاهد حياتي في شكل فيلم سينما.

تحشرج صوته، لكنه رد قائلًا:

- لا تتعب نفسك. استرح، سوف أطلب لك الطبيب حالًا.

- أنت تعرف أنني راحل. فقط كن بجواري.

- أنا بجوارك، لكن لا بد من إحضار الطبيب.

نظر العم لخالد في لوم، لكن أشار خالد لعمه أن يتحدث إليه في الخارج.

- ما الأمر؟ لماذا لم تطلب الطبيب؟

- طلبته، وجاء بالفعل، لهذا اتصلت بك.

- ماذا قال؟

- لن يجدي شيئًا، إن أبي يحتضر.

- سوف أطلب طبيبًا آخر، اثنان، عشرة. بل سوف أنقله للمستشفى، أفضل المستشفيات. هل نستسلم وأنتظره يموت؟

جاء الطبيب الذي طلبه العم، ولم يضيف جديدًا.

خرجت كلمات من هذا الجسم الذي تستعد الروح الساكنة بداخله للمغادرة:

- كفاكم مضيعة للوقت، كوني بجواري في تلك اللحظات المعدودة. أريد منكم شيئًا بسرعة، اطلبوا من الشيخ حازم الحضور، لا بد أن أراه، بسرعة من فضلكم.

انفجر خالد في البكاء، لكنه هدأ من روعه سريعًا، يكفي دموع أمه، ونحيب جدته لأبيه التي ترى وليدها يفارق الحياة. لكنه هرع لإحضار ما طلبه أبيه بعد أن دله عمه على عنوانه بالضبط.

دخل الشيخ حازم بعد أن سعل وتنحنح، وألقى السلام بصوتٍ مرتفع، ثم سلم على اليد الباردة. نظر للموجودين نظرة ذات معنى، وردد بعض الآيات. وطلب

الشيخ حازم من الحاج فؤاد ترديد الشهادتين، بعدها غاب الحاج فؤاد عن الوعي.

ربط الشيخ حازم رأس الحاج فؤاد منديل قماشي يضمن تثبيت الفك، وضبط وضعية الساقين استعدادًا لصعود روحه لخالقها.

كان غائبًا عن الوعي، وعينيه شبه مغلقتان، لكن ما يظهر منهما يبدوان كأن عليها سحابة بيضاء. ارتعش جسمه البارد، وتمتم وكأنه آخر زفير، لكنه كان ما زال حيًا. تكرر الأمر ثلاث مرات.

انفتحت جفونه قليلًا وبدا عليه بعض الوعي، وحاول الإشارة بيديه، لكن أحدًا لم يفهم. حينها تكلم الشيخ حازم:

- إن روحك تتعذب، معلقة، أظنك تريد أن تقول شيئًا قبل مقابلة وجه كريم، قل ما تريد لترتح روحك.

ثبت أصبعه المتحرك نحو خالد، وتمتم بصعوبة وعيناه تدوران في كل الاتجاهات. في النهاية استجمع قواه ونطق:

- أشهد الله وأشهدكم أن خالد ليس ابني.

أشار له أخوه باكيًا أن لا تكمل، لكنه أردف:

- لا يرث، لكني أهبه ثلث ثروتي، هذا حق الله.

بعدها أسلم الروح في هدوء وارتياح. مات الحاج فؤاد، بكى فهمي أخوه، وأمه وزوجته تصرخان، وخالد يقف ذاهلًا غير مستوعب ما قيل.

هناك العديد من الأشياء لا بد من إنجازها. طلب طبيب الصحة لتوقيع الكشف

وعمل تصريح الدفن، إعلان الوفاة وموعد صلاة الجنازة، الغسل والكفن، فتح المدفن وتجهيزه، التحضير لعزاء يليق بالحاج فؤاد.

كلها أشياء رتبها العم بنفسه أو بتكليف آخرين، وهناك عددًا من محبين الحاج فؤاد -رحمه الله- تطوعوا لتقديم أي خدمات. برغم ذلك، حاول العم أن يبقى بجوار ابن أخيه الذاهل الشارد، لم يستطع أن يوجه له حديثًا سوى حين قاطع ذهوله قائلًا:

- تعالَ.. يجب أن تقف معي على غسل أبيك.

نظر متسائلًا، أجابه عمه بنظرة مجيبًا أن ليس وقته الآن.

انتهى اليوم الشاق بكافة تفاصيله بعد أن انتهى خالد من أخذ العزاء في أبيه شاعرًا بالغربة والخواء. يريد أن يصرخ مسمعًا الكون كله، لكنه كان متحالمًا، متمنيًا لو أن ما قاله الحاج فؤاد كان جزءًا من سكرات الموت.

لم ينم خالد، سواء من صوت بكاء ونجيب أمه وجدته، أو بسبب نحيبه بالداخل. مرت ليلتان قاسيتان تتخللهما ثلاثة أيام هي مدة فتح المنزل للعزاء، بالإضافة للعزاء في قاعة مناسبات المسجد الكبير مساء يوم الوفاة.

بحلول مغرب اليوم الثالث، لم يعد هناك معزيين من الرجال، وانصرف العم بعد صلاة المغرب. بعدها طلب خالد عربة كارو لحمل الكراسي والفراشة أمام المنزل.

لم يعد بامكانه التحمل، قرر أن يذهب لمنزل عمه. فتح العم الباب بعد أول طرقة:

- توقعت مجيئك، تعال.

- أريد أن أفهم.

- ألا يمكنك أن تنسى ما قيل؟

- هل تعتقد أن تناسي ما قيل سهلًا.

اجلس، وسأخبرك. سأله عمه إن كان يرغب في أن يأكل أو يشرب، وبرغم عطشه وجوعه لم يطلب شيئًا من عمه الأرمل الوحيد.

دمعت عيني عمه، ثم أخبره:

- تأخر أبوك وأمك في الإنجاب، وتبين بعد العديد من الفحوصات أن أبوك عقيم. أعطى لأمك حرية الاختيار بين الاستمرار معه دون إنجاب أو الطلاق لتنل فرصتها مع رجلٍ آخر. رفضت تمامًا؛ كان يعرف أنها إذا خيرت ما بين الكون كله وأبيك، لاختارته، لكنه أعطاها القرار. في ذات يوم، في طريق عودة أبوك من صلاة الفجر للمنزل، سمع بكاء طفل يتسرب من شارع جانبي مظلم، سار في اتجاهه، إلى أن وجد وليد ملقى أمام عتبة منزل. تعجب من هذا الأمر، وتأهب لمنادة أي من المصليين العائدين لبيوتهم. لكنه لم يفعل، هناك ما خطف قلبه حين تمعن النظر في وجه ذلك الطفل. عاد إلى البيت، بنية إيوائه مؤقتًا لحين تدبر الأمر. مرت بضعة أيام دون جديد إلى أن اتفق من دون كلام مع أمك على أنك هبة من الله، وقرر أبوك تبنيك. حينها طلب الفتوى، وعلم بحرمانية التبني. لكنه ذهب للسجل المدني لتسجيلك ابنًا له دون اكتراث بالفتوى. اعترضنا جميعًا على ما فعله، لكنه واجه اعتراضنا بمحبته الكبيرة لذلك الطفل الذي اعتبره ابنه وكأنه من صلبه.

- هل لهذا السبب، كنت أشعر دائمًا بدعم القبول، ونظرات غريبة من كل أفراد العائلة.

- لا أعرف ما الذي كنت تشعر به، لكن ربما كان هناك من يهمس في الخفاء.

تذكر عندما قالت له زوجة خاله ذات مرة في شكل دعابة أن أبوه التقطه من أمام باب جامع. حينها، اشتعلت الدنيا، وأوشك الأمر على القطيعة بين الأم والخال، إلا أن الأمر انتهى بالتفاهم وصفاء النفوس، ولم يتكرر الأمر.

سأل مترددًا:

- وأنت يا عمي؟

- أشهد الله أني أحببت، وتعاملت معك ابنًا لأخي رحمه الله.

لم يجد جدوى في استجواب عمه عن مشاعره وأحساسيه تجاهه. لكن أكمل تساؤلاته:

- لمَ طلب الحاج فؤاد الشيخ حازم؟ وكيف عرف أن هناك ما تخفيه؟

- الحاج فؤاد! إنه أبوك مهما كان. لكني لا أعرف حقًا سبب طلبه.

- إذن.. سأسأله.

كان على وشك الذهب لمنزل الشيخ حازم، إلا أنه انتظر للصباح، لكن المنزل ليس مكانًا مناسبًا؛ لديه زوجة وأبناء. قرر الذهاب لصلاة الظهر خلفه، ثم طلب الجلوس معه بخصوص أمر مهم.

- أهلًا يا خالد، كيف حالك اليوم وحال الجماعة في البيت؟

- نحاول التماسك.

صمت لبعض لحظات، كسرها الشيخ حازم بنظرة أن قل ما جئت لتقوله.

- جئت لسؤالك عما قاله أبي في أثناء احتضاره.

- تفضل، اسأل.

- ماذا تعرف عما قاله؟

- هل تريد أن تعرف حقًا؟

- أنا بالفعل عرفت من عمي، لكني أريد أن أسمع منك ما تعرفه.

- حسنًا، منذ بعض سنوات، كنت ألقي خطبة الجمعة، وموضوعها عن آكلي الحقوق وخصوصًا في الإرث. أسهبت حينها في الأمر لخطورته. سألني الحاج فؤاد بعدها أكثر من مرة عن فرضيات كلها تدور في إطار التبني وما حكم الشرع، وما حكم القانون، إلى آخره من الفرضيات والتساؤلات. في مرة، سألته بصراحة عن سبب كل تلك التساؤلات التي شعرت مع كل إجابة مني أنه يتعذب. وأخبرني بالحقيقة كاملة، حينها أخبرته بأنك لا يمكن أن ترث، وأنه فقط يمكنه أن يمنحك هبة لا تتعدى ثلث ثروته، وعليه لا بد أن ينال كل مستحق نصيبه حسب الشرع. حينها اصفر وجهه، استأذن، وتركني ومضى.

- ثم؟

- لم يحدث جديدًا، كنت أراه في الصلوات والعديد من المناسبات، لكني كنت

أتحاشى النظر في عينيه لئلا يفسرها على أن تلك النظرة تحمل تساؤلًا أو إفادة ضمنية بأن سره انفضح. لم أرغب في يصله ذلك المعنى، لكني كنت أتعذب أيضًا بهذا السر الذي عرفته.

حينها، عاد خالد للمنزل، ثم قال لأمه مباغتًا:

- عرفت كل شيء، قال أبي أقصد الحاج فؤاد كل شيء قبل آخر زفير.

إن استبدال لفظة أبي بالحاج فؤاد أمر كافٍ لتفهم ما عرفه. برغم الدموع المحتشدة في عينيها، قالت:

- إنه أبوك وأنا أمك، هذا ما تعرفه، وهذا ما نعرفه. لكني لا أعرف لما أفصح عن هذا السر.

ظلت تتحدث معه، وتلاطفه بدموع منهمرة، وتقنعه أنه لم يتغير شيئًا ولن يتغير أي شيء.

دخل غرفته، يفكر في حياته القادمة، ثم حاول أن يفكر في مصيره إن لم يلتقطه الحاج فؤاد في تلك الليلة. ماذا لو التقطه أي شخص آخر؟ ماذا لو كان الأسطي سيد النجار هو من التقطه؟ ماذا لو كان حسب الله البقال؟

من أبواه الحقيقيان؟ هل هم من أهل المدينة؟ هل يعرف أحد منهما أين هو؟ وهل اطمئن أحد منهما على مصير الوليد الذي تُرك وحيدًا في شارع مظلم في ليلة باردة؟

حينها، قرر الذهاب لمنزل عمه، دون سبب، لكنه شعر بتلك الرغبة.

فتح له عمه الباب، ورحب به وطلب منه الجلوس، أما العم كان ملتصقًا بشاشة التليفزيون، يشاهد في اهتمام كلمة وزير الداخلية أحمد رشدي تعليقًا على اغتيال المعارض الليبي عبد الحميد البكوش في مصر.

زفر خالد، ولاحظ العم ضيقه، لذا قال في صيغة اعتذار:

- دقائق وأكون معك.

في أثناء ذلك، جاء صوت رشدي بإنجليزية بسيطة يقول:

- عبد الحميد البكوش حي، لم يمت كما يقول القذافي.

بينما يدخل البكوش القاعة فعلًا محييًا الحضور بالإنجليزية مصحوبة بالسلام عليكم ورحمة الله.

انتبه خالد لما يحدث، خصوصًا بعد أن هلل عمه، وكان على وشك الرقص طربًا.

- ماذا هناك يا عمي؟

- عمل كبير، حدث عظيم. تمثيلية كبرى على دولة ورئيسيها ومخابراتها. وإعلان ذلك على الملأ، بعد عودة المقتول للحياة في مشهد درامي.

لم يفهم خالد، لكن عمه شرح له قصة لجوء رئيس وزراء ليبيا الأسبق عبد الحميد البكوش إلى مصر لاجئًا سياسيًا هروبًا من نظام القذافي. بينما اتفق القذافي مع المافيا على اغتياله ثم تصوير جثمانه ليتأكد من مقتله. تعاملت الجهات الأمنية المصرية مع فريق الاغتيال وزيفت مقتل البكوش وأرسلت

للقذافي صورًا مفبركة للجثمان. حينها أعلن القذافي مسؤوليته عن اغتيال البكوش. ثم خرج وزير الداخلية في مؤتمر صحفي للتحدث عن ملابسات الاغتيال، ليفاجأ الجميع بدخول البكوش المؤتمر حيًا يرزق.

لم يكن خالد مهتمًا بما يقوله العم فهمي، لكنه صمت قليلًا ثم قال متهكمًا:

- إن مصر التقطت البكوش وأنقذت حياته بعد أن لفظه وطنه، كما التقطني الحاج فؤاد بعد أن لفظني أبواي.

صمت العم، لم يتوقع أن يقول خالد ما قاله. ظلا صامتين لدقائق، إلا أن طلب خالد الإذن بالانصراف. وأخبره العم قبل أن يغلق الباب، أنه لا بد من البدأ في إجراءات إعلام الوراثة.

قانونًا، سوف يوزع الإرث على أساس أربعة وعشرين سهمًا، سبعة عشر منها لخالد، وأربعة للجدة، وثلاثة للزوجة. لكن المستحق شرعًا، تقسيم الإرث على أساس إثنى عشر سهمًا؛ خمسة للأخ، أربعة للأم، ثلاثة للزوجة، وليس لخالد نصيبًا، وهذا ما قاله الحاج فؤاد أنه لن يرث.

كان خالد منكمشًا، غريبًا، ليس له دور إلا وأن يكون رد فعل لكل الأمور التي عصفت بحياته فجأة. انتظر لكمة أو دفعة جديدة ليعرف كيف سوف يتموضع في حياته الجديدة.

بعد إعلام الوراثة، حضر جميع الورثة في منزل الحاجة فؤاد بما فيهم خالد غير المستحق للورث.

- علينا أن نفتح خزانة الحاج فؤاد رحمه الله لنرى إن كان ترك وصية.

هكذا قالت أرملته. أمن الجميع على ما قالته، وتوجهوا لفتح الخزانة.

- هل تعرفين أرقامها السرية؟

سأل العم، وأجابت:

- نعم؛ إنها تاريخ ميلاد خالد!

سأل خالد نفسه:

- أي تاريخ ميلاد؟ ما هو تاريخ ميلادي الفعلي؟ من أنا أصلًا؟

بالفعل، فُتحت الخزنة، وبها ظرف مغلق مكتوب عليه وصية. أعطت أم خالد الظرف للعم لفتحه وقراءة محتواه بصوتٍ عالٍ. لم يسمع خالد الديباجة وكل ما يخص الموت والحياة وطلب الدعاء، لكنه تفاجأ مرة أخرى بأن الحاجة فؤاد يؤكد في وصيته على أن خالد ليس ابنه وشرح تفاصيل العثور عليه كما وصفها العم والشيخ حازم. وأنه اضطر لكشف السر خوفًا من الله حين يقابله؛ لأنه لم يقسم الإرث وفقًا للشرع.

ثم أوصى بالثلث هبة لخالد وطلب منه السماح والدعاء، وبتقسيم الباقي طبقًا للشرع. ثم قال العم:

- أنا متنازل عن نصيبي، ليقسم الإرث بين أمي وأم خالد وخالد.. ابن أخي.

بهذا التنازل، أضاف العم ثقلًا آخر فوق صدر خالد، ولم يرتح في حياته، شعر بعدم الاستحقاق وأنه منبوذ باسمه الزائف، وكلما تصرف في تجارة الحاج فؤاد، شعر بثقلٍ جديدٍ يجثم فوق صدره. لم يعد في إمكانه تحمل وجوده وسط

المستقبل الذي تحدد بماهية الشخص الذي التقطته. كلما مر يوم، شعر بالخواء وعدم الانتماء للمكان والزمان، وتلقى شعورًا معاكسًا بأن المكان والزمان يلفظانه. مرت الأيام، إلى أن دخل على أرملة الحاج فؤاد وأخبرها أنه مسافر أو بمعنى أدق مهاجر لأرض جديدة يصنع فيها حياة يختارها بنفسه.

(6)

الكلب

إنها اللعنة التي أصابتني منذ أن انتقلت لهذا المسكن الجديد، إنها لعنة المدن الجديدة وهي شبه فارغة من البشر. الدليل الوحيد على وجود حياة بهذا المكان هو وجود الكلاب كأنها احتلت الكوكب بعد سقوط نيزك أفنى البشر.

لا يمكنني القول أني أخاف الكلاب، ولكني لا أقربهم ولا أشعر بالراحة إذا اقتربوا مني على عكس زوجتي، لذا أتوخى الحذر وأنا أمشي في طريقي في أثناء وجودهم أو سيرهم بعشوائية منظمة. أتوتر في حالة هياجهم ونباحهم بشكل يبدو هيستيريًا، أشعر أنه ربما أكون أنا المقصود، ولكني أوقف تلك الأفكار بمجرد أن تتداعى؛ ما الداعي لأن تقصدني الكلاب أنا بالذات. أمر بسلام بعد ضبط نفس وتحكم في الأدرينالين وشعور بنشوة نصر وكأني جاسوس مثل «رفعت الجمال» أو «أحمد الهوان» بعد المرور بنجاح من جهاز كشف الكذب.

في هذا اليوم كنت عائدًا إلى المنزل كعادتي، ولكن الوضع مع الكلاب كان مختلفًا عن المعتاد؛ الكلاب كانت في حالة هياج شديد مع نباح مستمر وجري تجاه هدف محدد.

كان الهدف كلبًا آخر. حاصرته أعداد من الكلاب واستمروا في التضييق عليه والنباح تجاهه. أظن أنه كان ينبح أيضًا، ولكن صوته لم يكن مسموعًا.

توقفت أمام هذا المشهد، ولا أعلم ما السبب في كون هذا الكلب مغضوب عليه أو كونه منبوذًا!

هل كان غريبًا عليهم؟ هل اكتشف الكلاب أنه كاذب؟ خائن؟ مستغل؟ مزور؟ عربيد؟ أم اكتشفوا علاقته بكلبة أخرى ضد الأعراف والتقاليد؟ هل أكل وهم جوعى؟ هل أفشى سرًا؟ هل سرق؟

أم أنهم كانوا يهاجمون هذا الكلب لأنه مختلف! ربما كان عبقريًا أو كانت لديه أفكار مختلفة عن الوعي الجمعي لبني جنسه.

هل كانوا يتنمرون؟ هل شكل أنفه أو فمه أو أذنيه مختلف؟ أم لون جلده أو شعره؟ ربما تعلم نباح فصيلة أخرى، ولكنه ما زال ينبحها بلكنة فصيلته؟ هل رفض القالب الثابت للحياة وتمرد؟ هل كان نشيط وجميعهم كسالى؟ أم كان كسول وجميعهم نشيطون؟

ما الذي فعله هل الكلب لينل هذا الحصار وكل هذا الغضب؟

***

الكلاب حالة خاصة بالنسبة لي منذ الصغر. كنت أخافها؛ إذ كان هناك من يقتني الكلاب البوليسية العملاقة في شارعنا. كنت أراها كائنات عملاقة بالنسبة لحجمي في ذلك الوقت. بالطبع لم يختلف الأمر بخصوص الكلاب البلدية في الشارع التي لا أعرف لما تنبح حين أمر. نبهتنا أمي -أنا وأخي- ألا نركض حين نرى كلبًا أو نسمع نباحه لأن الكلاب تشم الخوف.

لكني أخاف وأخي يُرعَب حين نعلم بوجود كلب حتى لو في نهاية الشارع أو فوق سطح منزل! كيف يمكننا خداع الكلب وهو يشم ما بداخلنا؟ إن زيفت مظهري الخارجي كيف يمكنني تزييف ما بداخلي؟

كانت حادثة فريدة من نوعها حين كنت أمشي مع أخي من منزلنا إلى منزل جدتي لأخذ بعض الأغراض التي تحتاجها أمي. كان الطريق عبارة عن شارع مستقيم ما بين منزلنا ومنزل جدتي. في هذا الشارع الضيق كنا نمر دائمًا، أمسكت بيد أخي، لكنه اختفى فجأة.

بحثت عنه حولي إلى أنا رأيته راكضًا، كان قد وصل لنهاية الشارع تقريبًا. انتبهت أنني أقف بجوار كلب بوليسي عملاق. تذكرت تحذير أمي وحاولت ألا أفزع وألا أركض؛ الكلب قريب وإن فكرت في الركض، سوف يغرس أسنانه في جسمي الصغير.

تحاملت على الثبات لثوان، إلى أن مر الكلب من جواري وأنا أحبس أنفاسي، ثم خطوت أول خطوة بسلام، ثم تبعتها خطوات مثقلة أخرى، إلى أن وصلت لمنزل جدتي بسلام وأمان.

بعدها لم أعد أخشى الكلاب. لم أتحول للعب معها واقتنائها أو الرغبة في تربيتها، فقط لم أعد أفزع عند رؤية أو سماع صوت كلب، والسبب كان أخي. كان واجبًا كأخ أكبر حماية أخي حين يرى كلبًا لأطمئن خوفه بدلًا من الركض، فيهشم الكلب خوفه ويلتهمه.

حب زوجتي للكلاب جعلني أركز مع تصرفتها أكثر، إنها تحنو عليهم حنو الأم بحب وغريزة سليمة دون اصطناع، وتنال حبًا غير مشروط إذ تقدم لهم الطعام والمياه وقبل ذلك لمسهم بعطف ورأفة. برغم تأكيدها لي على عدم خطورة ملامستهم، إلى أني لم أستطع أن أمنع نفسي من الخوف عليها.

***

تساءلت.. هل يمكنني إيقاف هذا الهجوم على هذا الكلب المحاصر؟ كانت إجابتي أن لا، ليس لدي من القوة التي تعادل قوتهم، وليس لديهم من العقل الذي يمكن مخاطبته كي يتوقفوا.

ذكرني هجوم الكلاب على هذا الكلب بنفسي! تكالب عليّ ذات مرة أبناء أعمامي مع بعض الأقارب إذ كنت أصغرهم. أقنعوني باللعب معهم، فرحت لأني سوف ألعب مع الكبار. كنت مختلفًا عنهم، أنطوي على نفسي؛ لذا أسعدني دعوتهم.

كان مكان اللعب في تلك الساحة الخربة حيث عشش شي الأسماك بحطب الأخشاب. كانت اللعبة أن يقف أربعتهم في شكل مربع ويدفعونني ما بينهم. كان الدفع مؤلمًا ولم أجرؤ على الاعتراض؛ لأن صوتي لم يغادر حنجرتي، وكلما استجمعت قوتي للصراخ، كنت أُدفَع بقوة. تعمد واحدًا -لم أكن أتبين من هو منهم- أن يبتعد حين دُفعت ناحيته، ليتسبب قصوري الذاتي في وقوعي على كومة أخشاب لتنغرش أشواكها في مناطق متفرقة في جسمي.

أخافهم صراخي متألمًا، جاؤوا مسرعين للاطمئنان أن أحدًا لن يعرف أنهم المتسببون؛ حتى أتمكن من اللعب معهم مرة أخرى على حد قولهم.

تذكرت حين تلقيت ذلك الحجر برأسي في عراك شارع بعد فوزي في مباراة بلي، بعد أن تآمر حريفة الشارع على تلقيني درسًا جراء الفوز عليهم. لم أكن ضمن عصابة تضمن حمايتي في موقف مشابه.

حتى بنت الجيران مطمع الشارع، مع كل محاولات الذكور للتقرب إليها

بالتلميح أو التصريح، لم تتحمل أن أتقرب لها بالنظرات. أخبرت أحد أقربائها بمحاولات مني لم تحدث. وكانت النتيجة ضربًا مبرحًا بالأحزمة الجلدية.

ظل هناك جرحًا مفتوحًا في روحي، لا أتوقع له التئامًا ما حييت. كنت أنا دائمًا عضو الشلة الذي يمسك في ذيلها لئلا يصبح وحيدًا. لكن كل تلك المحاولات للذوبان مع الآخرين فشلت. حينها فضلت الوحدة الكاملة.. لا داع للبشر في حياتي!

عشت وحيدًا بلا أصدقاء، بلا حبيبة، بلا محاولات لسد تلك الحاجة النفسية الرهيبة، وكرهت كونها حاجة.

***

ما زلت أسمع صوت النباح المتصاعد في أثناء دخولي للعمارة، حتى بعد أن أغلقت البوابة وسرت للعمق في اتجاه المصعد.

حين دخلت الباب، أجبرني فضولي على دخول الشرفة المطلة على الشارع. سمعت صوت نباح ينخفض في الشدة وأنا أفتح باب الشرفة، وحين دخلت، كان المشهد من الأعلى مهيبًا، الكلب المحاصر ما زال في المنتصف ثابتًا، والكلاب المهاجمة له تبتعد بعد أن أنهكها النباح. بعد لحظات، ابتعد الجميع، وظل الكلب المحاصر وحيدًا دون عصابة تضمن حمايته في موقف مشابه.

(7)

كوب قهوة

كان هذا المكان ملجأه اليومي الصباحي قبل الذهاب للعمل. اعتبره جزءًا من طقوس يومه، يصبح اليوم منقوصًا إن تأخر وحال ذلك دون شراء قهوته وافطاره الخفيف ما بين كرواسون محشو جبنًا أو شطيرة مكونة من شريحتي توست بينهما بيض وشريحة جبن.

فتح الباب مرتبكًا مثل كل مرة كان يفتحه فيها؛ إذ يختلط عليه الأمر إن كان عليه سحبه أو دفعه برغم الملصق الواضح. دخل مغطيًا رأسه بكاب الذي تسبب بإضافة ظلال بفعل أشعة الشمس الصباحية المتسللة عبر زجاج الباب والنوافذ على وجهه الشاحب المائل للبياض. لم يكن صعبًا أن يلحظ أحد جسمه الناحل الهزيل الذي بالكاد يحمل رأسه.

مرت بضعة أشهر لم يذهب لهذا المكان بعد مواظبة طويلة. طلب قهوته الأمريكية لكن دون أن يطلب إفطارًا، ابتسمت له الفتاة الباريستا، وسألت عن الاسم لكتابته على الكوب كما هي العادة.

قبل أن يجيب، قالت: مستر حسام؟

أومأ برأسه أي نعم مع ابتسامة لم تظهر واضحة لأن معالم وجهه تبدلت، ولون وجهه الشاحب لم يجعله يتوقع أن أحدًا سوف يتذكره.

كيف تتذكره تلك الفتاة برغم مرور الأيام وتبدل حاله وملامحه الباهتة.

حين سألته عن الآنسة التي كانت تأتي معه دومًا، لم يجب، شعرت بالإحراج وبادرت سريعًا بالاعتذار في أثناء تحسسه لبنصره الأيمن.

أخذ كوب القهوة ودار ببصره في المكان إلى أن توقف بصره ناحية منضدة بجوار النافذة وارتسمت ابتسامة على وجهه حين وجدها فارغة وتوجه ناحيتها.

جلس ممسكًا بكوب القهوة بكلتا يديه كأنه يحتضنه وقربه من أنفه وشمه بعمق. ظل يكرر الاحتضان والشم في حين كان يحملق في كل الموجودين ضمن مجال نظره.

بعد أن انصرف، جاء أحد العاملين لأخذ الكوب الذي ظنه فارغًا، وحين رفعه غير متوقع لوزنه، اختل الكوب لكنه استطاع اللحاق به قبل أن ينسكب كل ما به. وتعجب لأن الكوب تقريبًا ملآن.

Telegram:@mbooks90

في اليوم التالي، تكرر الأمر بكافة التفاصيل وكذلك اليوم الذي يليه، في ذلك اليوم أشار العامل للفتاة الباريستا إشارة ذات معنى، وتبادلا التعجب من العميل الذي يشتري القهوة ولا يشربها تقريبًا.

في اليوم التالي، كان مثيرًا للاهتمام مراقبته في حين تبادلا النظرات والإيماءات والإشارات، إيماءة حين احتضن الكوب بكلتا يديه، إشارة حين رفعه وشمه، نظرة حين وضعه مرة أخرى على المنضدة، وظلا يتابعانه حتى انصرف، وتأكدا أنه لم يرشف رشفة واحدة من الكوب.

أصبح الأمر تقليديًا لمدة ثلاثة أسابيع تقريبًا، هكذا قدرا المدة، ثم لم يأتِ في موعده ومارس طقوسه محل التساؤلات لمدة ثلاثة أيام.

في اليوم الرابع، ظهر، شيء ما جعل الفتاة الباريستا تفرح لرؤيته. إنه الغموض المثير. كيف كان هذا الشخص بشوشًا يملأ المكان بطاقة إيجابية دون تصنع حين يأتي صباحًا وبصحبته تلك الفتاة الجميلة، كان واضحًا أنهما مرتبطين، لمَ اختفى لفترة طويلة!

تكررت دورة الظهور والاختفاء عدة مرات مع زيادة ملحوظة في الشحوب والنحول. أصبح تصرفه مألوفًا، ولم يجرؤ أحد على السؤال عن سبب تركه للكوب كما هو؛ فهو يأتي بشكلٍ شبه مستمر، بالتالي ليس هناك شائبة تشوب جودة القهوة أو نظافة المكان أو الكوب تسدعي السؤال. هو يستمتع بتلك الطقوس، ويكررها، هذا هو الأمر.

ما زالت دورة الظهور والاختفاء تتكرر، إلى أن اختفى وطال اختفاؤه. كان الاختفاء محل تساؤلات بين الفتاة الباريستا والعامل، لكن بعد بضعة أيام أصبح اختفاؤه الطويل غير مثير للاهتمام!

في صباح يوم، فتحت فتاة مرتبكة الباب بعد أن اختلط عليها الأمر إن كان عليها سحبه أو دفعه برغم الملصق الواضح.

وقفت في الصف تنتظر دورها، حين وصلت أمام الفتاة الباريستا، رحبت بها وعبرت عن ترحيبها لأنها لم تأتِ منذ فترة طويلة. في حينها التفتت الفتاة حولها وكأنها تبحث عن شخص.

قالت الفتاة الباريستا بتسرع ندمت عليه:

- إنه لم يأت منذ فترة.

أجابت بدموع حاوت حبسها:

- إنه لن يأتي مرة أخرى!

وانصرفت تنتظر تجهيز قهوتها.

توجهت للمكان الذي كانت تجلس فيه معه؛ جوار النافذة. ثم قامت بعد أن سمعت اسمها للحصول على كوب القهوة.

أمسكت الكوب كأنه طفلها، احتضنته، ثم تحسست بنصرها الأيمن، ونظرت شاخصة إلى يديها. حينها فتحت شنطة يدها وأخرجت منها دبلة ذهبية تحسستها ما بين السبابة والإبهام.

وفجأة اختفت، لم يبقَ منها سوى كوب القهوة. جاء أحد العاملين لأخذ الكوب الذي ظنه فارغًا، وحين رفعه غير متوقع لوزنه الملآن، اختل الكوب لكنه استطاع اللحاق به قبل أن ينسكب كل ما به. وتعجب لأن الكوب تقريبًا ملآن.

(8)

نقل دم

لم يعد في إمكانه سماع المزيد منها، فجأة صاح فيها:

- اسكتي يا غبية.

توقفت حينها عن وصلة الاتهامات والسباب، وشرعت في وصلة جديدة على إثر وصفها بالغبية. إنها أول مرة يفقد فيها أعصابه لدرجة أن يسبها. في العادة، كان يتركها تُخرِج ما بداخلها من شحنات عصبية، محاولًا تعطيل حاسة السمع، وإن سمع؛ جرب إبطال آليات رد الفعل وحماية كرامته المبعثرة جراء كل هذا الغضب.

- لتتوقفِي، لم يعد في إمكاني تحمل كلماتك، صوتك، حياتي كلها معك.

- أعرف، لم تعد تحبني.

- هل لا بد أن أتحمل كل هذا الخبل لأكون محبًا؟

- يمكن أن تقولها ببساطة، لم أعد أملأ عينيك. هل هناك أخرى؟ أم أخريات؟

- لا يمكنني تحمل كلمة أخرى.

لحقت بي قبل أن أغلق باب الشقة صائحة:

- توقف يا وليد؟ إذن لم تتوقف عن حياتك القديمة؟ هل تتركتني من أجل عاهراتك.

أغلق الباب، نزل درجات السلم مهرولًا كأنه بولندي يهرب من مذابح النازي في الحرب العالمية الثانية.

***

ركب السيارة، وحين أغلق بابها، شعر بالارتياح، بددت ضوضاء الشارع صوت صراخها في أذنيه. شعر بالحاجة لسماع موسيقى صاخبة ذات قدرة على ابتلاع الصراخ المتردد في عقله.

كانت مقطوعة Light of Day, Day of Darkness لجرين كارنيشن مناسبة لتلك الحال، الخليط الهادر من موسيقى الروك والميتال يمكنه تبديد أي ضوضاء، وصوت السيدة الصارخ بداخل المقطوعة سوف يبتلع كل ما سمعه من صراخ.

في أثناء قيادته للسيارة قاصدًا لا مكان، تلقى اتصالًا من صديقه يوسف.

- ما بك؟ صوتك غريب.

- خناق، نكد، كالعادة.

- الحمد لله على نعمة العزوبية. ألم تشتاق للعزوبية؟

- لا أعرف، ربما! ما عرفته عني قبل الزواج هو ما صنع ذلك الجدار السميك، الذي تزداد سماكته يومًا بعد يوم. شجار مستمر، تشكيك دائم، تخوين، هي لا تتصور أنني لم أخونها أبدًا. دائمًا تضع أمامها صورتي وحياتي قبل الزواج، وأنا لم أمس واحدة منذ أن استحوزت على عقلي وقلبي.

- تعالَ نتقابل.

- حسنًا، أنا قادم إليك. أرسل لي موقعك الحالي.

تعناقا حين وصل، ثم دخلا لهذا الكافيه. أخرج عددًا من نفخات الغضب مع دخان شيشة فستق نعناع. لم يدخل قط دخانًا إلى صدره، فقط كان ينفخه.

كعادته.. لا يجد يوسف صعوبة في الحديث؛ لديه قدرة فائقة على فتح أي موضوعات، برغم أنه بالكاد يفقه متطلبات عمله، وليس لديه من الثقافة ما يتيح له التحدث في أي موضوع، لكنه يتحدث بلباقة واقناع. تحدثنا عن العمل والحياة وتلك الفتاتين الجالستين بالطاولة المجاورة. يوسف، لا يمكن أن تفلت منه أي أنثى حتى وإن كانت جمادًا. حاول ملاطفة واحدة من الفتاتين بابتسامة، وإلقاء نكتة بصوت يضمن أن تسمعه. لحظات وقام وتحدث لهما بشكر مباشر، تجاوبت معه، وسحب كرسي وجلس على طرفه منحنيًا للأمام تعبيرًا عن كونه لن يجلس طويلًا. لم تمر لحظات حتى انتهى يوسف من مهمته وأخذ رقمها وانصرف.

قال لنفسه:

- ما زال لديه تلك القدرة الغريبة إذن. كيف يمكنه سحرهم ذلك القرد.

تذكر كيف زادت ثقته بنفسه لهذا الحد المتهور حين راهن على أن يتحدث لتلك الفتاة في الجونة، ويتأبط ذراعها في أقل من عشر دقائق. فعلها القرد في سبع دقائق. في اليوم التالي، اختفى فجأة في البحر، وفجأة ظهر ومعه حورية، يسبحان معًا كأنها يعرفها، تحفظه، لا تستمع بوقتها إلا معه.

عاد يوسف مرحًا كطفل استطاع الحصول على لعبة رغب فيها طويلًا، جلس

في مكانه بعد أن غمز بعينه. واستأنفنا حديثنا.

إنه ساحر لكل من تحمل صفة أنثى، لكن وليد يراه قردًا، هكذا يصارحه دائمًا بتلك الحقيقة، لكنه لا يهتم، يرد غامزًا بعينه: قرد لكنهم يحبنوني.. بجنون!

قبل أن تنتهي الجلسة، سأل يوسف:

- هل ستذهب إلى المنزل؟

- لا.. لن أذهب، سوف أبيت في مكتبي أو ربما فندق، أظن أن سيارتي مريحة بشكل كاف لأبيت فيها.

- تعال، وبت ليلتك في شقة مدينة نصر.

- هل ما زلت تملك تلك الشقة النجسة؟

- نجسة! هل نسيت الأيام الحلوة؟

لكزه بكوع مرفقه الأيمن واستأنف:

- ألم تشتاق للنجاسة؟

- لا.. الحمد لله. إنها نجاسة فعلًا؛ لأن برغم تركي لجلساتها ولياليها إلا أنها سبب فشل زواجي وتعاستي في بيتي، الآن أبحث عن مكان أبيت فيه ليلتي.

- لا تكبر المواضيع، حتى لو كنت نبيًا، قد يكون نصيبك مع زوجة تشكك في إخلاصك وسلوكك، إنه اختيارها.

- غباء، كم وددت أن أثبت لها عكس ما تتخيله عني.

في الطريق، مر يوسف لشراء بعض عبوات البيرة والفودكا المنكهة.

صعدا لتلك الشقة، وشعر وليد بضيق حين هم يوسف بفتح الباب. تذكر ليالي السهر في ذلك المكان. سهرات مكتملة العناصر، تلك السهرات التي تصفها الدراما بالحمراء.

***

عرف يوسف من الجامعة، تشاركنا في عدد من المشروعات الصغيرة في فترة الدراسة، تعمقت صداقتهم، أصبحا زملاء دراسة، شركاء في العمل، أصدقاء روح.

كانت لدى أسرة يوسف شقة قديمة في مدينة نصر، أقام بها الصديقين مقرًا لشركتهم، ونجح الأمر. يوسف كان بارعًا في التسويق والبيع، تلك مهارته الحياتية والعملية الرئيسية، أما وليد عمل مصممًا للجرافيك بشكل رئيسي وتعلم مهارات أخرى حينها استجابة لأي (سبوبة) يمكن الكسب من ورائها.

ذات ليلة، كان مع يوسف في سيارته متجهين لشقة مدينة نصر، مقر شركتهم، وحين مر في شارع عباس العقاد، توقف يمينًا وضغط زر الانتظار. توقع أنه سوف ينزل لشراء شيئًا يحتاجه. لكنه جلس ينظر ناحية المرايا اليمنى، كأنه يراقب أو ينتظر. وحين اقتربت فتاة تمر بجوار السيارة، فتح النافذة، وقال:

- تعالِي.

حينها اندفع الدم لرأسه، وشعر بمصيبة قادمة حتمًا، وتخيل المارة وهم يضربونهم بالأحذية وسط الشارع. لكنها أجابت:

- شقة؟

- نعم.

- اثنان؟

- اركبِي يا روح أمك وبعدها اسألي كما شئتِ.

بالفعل ركبت، لم يكن مصدقًا لما يحدث، ظل صامتًا وسط كل كلمات يوسف الوقحة لتلك الفتاة، لم تخلُ جملة من سبة تتخللها أسماء لأعضاء تناسلية تخصها وتخص عائلتها.

حين وصلا إلى الشقة، تحدث إلى يوسف عما يحدث، وكيف عرف أن تلك الفتاة من إياهم. غمز بعينه، وقال:

- فيما بعد، دعنا نضع تركيزنا في الليلة.

لم تبذل تلك الفتاة مجهودًا كبيرًا لتحويل نفوره من الأمر لتقبل كامل واندماج فقد على إثره عذريته. طالما كان مصطلح العذرية مقتصر على الإناث، لكني في ذلك اليوم فهم أن له عذرية.

تكررت السهرات، أصبحت روتينًا، مشتملة على أنواع مختلفة من الأمزجة: سجائر، سيجار، زجاجات النبيذ والفودكا المنكهة، عبوات البيرة المعدنية، وبالطبع فتاة من إياهم كان يلتقتهم يوسف من الشارع، بعدها أصبح لديه جهات اتصال، يمكن أن يطلب ما يريد ليصل إليه أينما يريد.

على فترات كان ينضم لهما ثالث، في الأصل هو صديق ليوسف. كان مختص

بإحضار الحشيش، ويحصل عليه بعد فحص دقيق لمدى جودته.

مرت الليالي على هذا الحال، يتناوبون على فتاة واحدة بترتيب متغير كل مرة. شعر وليد بالحقد بعد تجنيده في حين أعفي يوسف لأنه وحيد ووالده متوفٍ. لذا توقفت الشركة عن العمل، بالإضافة لحصول يوسف على عمل في شركة دعايا وإعلان. تم تصفية الشركة بمودة، وكان جزء من تخرج وليد هو جهاز الكمبيوتر وملحقاته، وطلب من يوسف أن يبقيها في الشقة مؤقتًا.

قضى وليد إجازاته القصيرة في الشقة، ينجز بعض الأعمال صباحًا، وفي المساء يبدأ الاحتفال. أصابه الرعب في مرة، بعد أن شعر بآلام شديدة وحرقة في البول مع تغير لونه للأخضر. كان السبب بالتأكيد واحدة من اللائي يحضرهن يوسف. بعد يومين، صارح يوسف بأعراضه، وأخبره أنه أيضًا يعاني من نفس الأعراض. وعليها، عرفوا أنهما مصابان بالسيلان، بعد استشارة طبيب من معارف صديق ليوسف.

بعدها، أصبح التغيير غير مستحب، وتوافقا على عدد محدود من الفتيات كانوا الأكثر نظافة وإثارة وأداءً.

استمر الأمر على نفس الحال إلى أن انتهت خدمة وليد العسكرية، تمكن بعدها من الحصول على عمل مناسب. تقلص تردده على الشقة، وباع جهاز الكمبيوتر وملحقاته. لم ينقطع، كان لا بد من سهرة على أوقات متفاوتة.

مرت السنوات مواظبًا على هذا الروتين. لم يفكر في الزواج، إلى أن ظهرت هي في حياته. كانت بالنسبة له شبيهه بالوصف الذي كتبه الدكتور أحمد خالد توفيق في إحدى كتاباته: إنها هرمون الاستروجين لو كان يمشي ويتكلم.

اكتملت القصة الكلاسيكية للتعارف سريعًا، ووجد شعورًا معها بالاكتمال، جعلته يرى الأنثى بشكل مختلف عن الصورة الحيوانية التي اعتاد عليها. نعم يرغبها، لكن بشكل مختلف عن هؤلاء الفتيات الآني يشاركهن مع يوسف.

قرر طلب الزواج منها، وافقت، وتم كل شيء بهدوء وسلاسة. تحدث معها بانفتاح، شعر بوجوب التطهر أمامها من كل ما فعل، دفعته رغبة عارمة لذلك، ربما ليثبت أنها مختلفة، ربما ليثبت لنفسه أنه تغير، ربما ليثير إعجابها بمغامراته!

***

دخل الشقة بعد عامين من الانقطاع التام منذ أن وقع في حبها. جلس ليستريح متشككًا في نظافة الكراسي والأريكة، كانت هناك بقع جافة -يعرف مصدرها- في كل مكان. تحرك يوسف من مكان لمكان عابثًا بأشياء وحاملًا لأشياء أخرى، ثم غلبه النعاس.

أفاق على صوت جرس الباب ممزوجًا بتردد صوت زوجته صارخة: "هل تتركتني من أجل عاهراتك؟".

خرج يوسف لفتح الباب، ودخلت فتاة يعرف ملامحها. إنها «نور»، واحدة من الفتيات المختارات. نظر ناحيتها وتبين أن شيئًا لم يتغير فيها برغم بمرور عامين.

دخلت، وارتسمت على وجهها بسمة حين رأت وليد جالسًا. اقتربت منه لتقلي السلام، صافحها دون أن يقف من مكانه. تعمد أن يبقى جالسًا حتى لا يضطر لاحتضانها وتقبيلها.

خلعت حجابها، ثم حملت شنطتها ودلفت للداخل. حينها قال وليد ليوسف أنه مغادر، ولامه على إحضار نور. اعتذر وأخبره أنه كان يحاول إزاحة ما يشعر به من ضيق وحزن، وأنه تصور أن نور يمكنها ذلك؛ لأنها كانت المفضلة له في يوم من الأيام.

- سأحاول أن أجعلها ترحل دون أن أضايقها.

- منذ متى ويعنيك أمر أي شخص!

ابتسم يوسف محاولًا مدارة ضيق ما ألم به، واستدار ناحية الغرفة. لحظتها خرجت نور مترددة بيبي دول أبيض.

تهلل وجه يوسف، وقبلها في رقبتها بعنف، ثم نظر ناحية وليد وغمز. نظر إليه بغضب وتأهب للمغادرة. حينها اقتربت نور من وليد، ولامست وجهه ويده، سقط على الكرسي بعد أن وصل لذروه ضعفه. جلست على رجله بمؤخرتها المثيرة، اشتم عطرها الرخيص، لكنه أثاره وانتصب عضوه، حينها أدارت رأسها ناحيته بغنج وقبلته، بينما يقف يوسف وهو يجرع البيرة قائلًا بسماجة:

- هل أغادر أنا! يبدو أن نور تفتقدك كثيرًا.

ثم غمز بعينه. شعر حينها وليد بغثيان رهيب، طلب من نور القيام، وهرع للحمام. تطوع يوسف ليقول:

- إنه شرب كثيرًا قبل مجيئك، يبدو أنه متعب.

دخل الحمام، شاعرًا بالتقزز من نفسه، ومن تلك الشفاة التي لامست شفاته. منذ عامين.. كانت يلتهم شفاة نور، وأي شفاة بديلة عنها طالما أنها لأنثى. غسل

فمه ويده ووجهه بعنف، أجبر نفسه على التقيؤ. تقيأ مرة ثانية، وثالثة، بينما يدعك كل جزء في جسمه لامسته نور، ثم بكى، وتقيأ، إلى أن فرغ جوفه تمامًا.

حين خرج، لم يكن أحدًا في الخارج، لكن كان واضحًا أن يوسف ونور في غرفة النوم. دخل المطبخ ليملأ بطنه الفارغة، فتح الثلاجة للبحث عن شيء يؤكل، وجد بعض بسكويت الشيكولاتة، أخذت اثنان، وزجاجة فودكا منكهة، وجلس في الصالة، يأكل ويشرب سامعًا لصوت يوسف ونور متسللة من باب الغرفة المغلق.

قام لإحضار عبوة بيرة، جلس ليجرعها بهدوء إلى أن جاءه اتصال من رقم غريب في ذلك الوقت المتأخر. اضطر للرد، كان صوتًا ذكوريًا قلقًا، تأكد من شخصه ثم أخبره أن زوجته في طوارئ المستشفى جراء حادث ألم بها في أثناء وجودها بسيارة أجرة اصطدمت بسيارة أخرى.

صاح بكلماته المتثاقلة:

- ماذا حدث لها؟ هل هي بخير؟

- الأمور مستقرة لكنها تحتاج نقل دم، نحتاج لمتبرعين حتى نتكمن من صرف أكياس الدم المطلوبة.

بعد أن أغلق الخط، وجد رسالة على الواتساب من زوجته تخبره أنها ذاهبة لمنزل أهلها منتظرة الطلاق.

لم يدرِ بنفسه، ظل تأهًا يدور حول نفسه، ثم اتصل بيوسف، لكنه لم يسمع صوتًا لجرس الهاتف؛ ما زال يوسف يضع هاتفه على الوضع الصامت الأبدي. طرق

الباب مناديًا يوسف، رد بالعديد من الشتائم والألفاظ التي تمس الأهل والعرض.

خرج يلهث وهو نصف عار والعرق على جبينه، وسأل ما الأمر. أخبره بما حدث، وأنه مغادر للمستشفى طالبًا أن يلحق به بعدد من الأصدقاء والمعارف للتبرع بالدم. خرجت نور عارية تمامًا تطمئن بعد أن سمعت ما حدث، وقالت:

- إن شاء الله خير، ربنا يطمنك عليها.

أخبره يوسف أن سوف يلحق به بمجرد أن يرتدي ملابسه. حاول التشويش على عقله بالاستماع للراديو، غير بين المحطات حتى سمع أغنية يعرفها، إنها أغنية Princess of Egypt لفريق إي-تايب:

أنا قادم للمنزل ولا أريد أن أسمع كلمة أخرى حول هذا الموضوع

من الصعب القتال جيدًا وأعود وحدي من الهاوية

لا مزيد من تلك الأفكار المجنونة، لقد انتهى الوقت بالنسبة لدون كيشوت

أعرف الأغنية، أحبها، لكن لم أتوقف لفهم كلماتها من قبل.

على الرغم من أنني بذلت قصارى جهدي، إلا أنني لم أنجح في اختبارك

أنت أميرة مصر وأنا مجرد رجل

أريد أن أكون معك، أشعر بالضياع

أحتاج إلى معجزة كي أجعلك تفهمين

وصل المستشفى، دخل ليسأل عن زوجته، أخبروه أنها مستقرة لكن جرحًا

بفخذها تسبب في نزف شديد. وأنه بعد الأشعة والفحوصات المبدئية لا وجود لشيء خطير لكنها تستكمل الفحوصات التأكيدية الآن.

استكمل بعض الإجراءات، ثم دخل يوسف للمستشفى. سأل عن الأخبار؟ وأخبر وليد أن ثلاثة من الأصدقاء قادمين بعده، طلب منه التوجه للتبرع بالدم إلى أن يصل الآخرون.

وصلا لبنك الدم وقبل الدخول لغرفة التبرع، أعطاهم موظف الاستقبال استمارة لكتابة البيانات الشخصية وبعض الأسئلة المهمة للمتبرع.

الأسئلة كانت بخصوص إصابات بالفيروسات الكبدية أو فيروس نقص المناعة المكتسبة، وكذلك السؤال عن تعاطي المخدرات والكحول، وعن إذا ما كانت هناك علاقات جنسية متعددة للمتبرع.

قرأوا الورقة أكثر من مرة، جحظت عين وليد ذاهلًا سائلًا نفسه:

- هل هناك حقًا من ينتظر إجابة صادقة عن تلك الأسئلة؟

نظر إلى يوسف، وجده مبتسمًا ابتسامة بلهاء، ثم شرع يمطر الورقة بعلامات صح في خانة لا، إلى وصل لخانة تعاطي الكحول وخانة العلاقات الجنسية المتعددة. حك ذقنه وكأنه يفكر، ثم كانت إجابته لا ولا. انتبه إلى وليد وهو ينظر لورقته، ابتسم نفس الابتسامة البلهاء وغمز بعينه. ثم نظر لورقة وليد، ووجدها بنفس الإجابات.

سأل وليد عن زوجته، واطمئن أنها أنهت الفحوصات، وصعدت لغرفة لنقل الدم. سأل عن مكانها، وصعد، استأذن للدخول ليطمئن عليها. كانت واعية لدرجة

كبيرة لكنها مصدومة. قبل رأسها واحتضنها بعمق وكذلك فعلت، ثم شعر بها وكأنها تنفلت من بين ذراعيه، ووجدها تنظر إليه في غضب بعد أن اشتمت رائحة عطر أنثوي رخيص في ملابسه، ورائحة كحول في أنفاسه. ثم تحولت النظرة إلى تساؤل: إذن لم تتوقف عن حياتك القديمة؟

(9)

السياج

رأيته بمجرد عبوري بوابة المدرسة، يجلس بجواره زملائه محاطين بسياج خشبي، يسمح بمراقبة تحركاتهم والتحكم في خروجهم لأولياء الأمور.

حين رأيته، ابتسم وجرى ناحيتي بحرارة وحماسة، التصق بي، احتضنته وقبلته. سألني عن أمه، أخبرته:

- طلبت منها أن آتي لإحضارك من المدرسة.

هممنا بالخروج وهو ملتصق بي، ثم سألته:

- هل أنت سعيد لحضوري؟

أجاب باقتضاب أي نعم، وكأنه لم يكن راغبًا في أن يجيب. قبل الخروج من البوابة، أوقفتني سيدة بوجه مكشر يبدو عليها غضب العالم كله. قالت لي:

- لو سمحت، ثانية واحدة.

وقبل أن أسأل عن سبب توقيفي، استأنفت بحسم:

- تعالَ جانبًا يا حمزة.

اللعنة! إنها تطلب من ابني أن يتركني، هل أنا مصاب بوباء وتخشى عليه مني؟

- إنه أبي يا (مس)!

هكذا قال ابني مدافعًا عني، أليس من المفترض أن أدافع أنا عنه! أخرجت لها كارت استلام الطالب، والذي أحضره لي بواب العمارة الذي يقطن فيها ابني وأمه قبل توجهي للمدرسة.

أخبرتني أنها لا بد أن تتصل بالأم لتتأكد، والعديد من الكلمات والجمل الحمقاء التي لم أسمع منها شيئًا. رفض عقلي أن يسمع كل تلك الأشياء والمبررات التي تمنعني من اصطحاب ابني من المدرسة.

ختمت كلماتها التي لم أسمعها:

- بالطبع أعتذر، لكنك تفهم تلك المسؤولية.

هل تقصدين لأننا مطلقين؟ هكذا سألت نفسي. ربما لهذا السبب تعتقد أني وغد، الرجل في هذا الموقف هو الوغد دائمًا، وها أنا موجود أقف في هذا الموقف، ربما لأنني ارتكبت جريمة منعت طلقيتي وأم ابني من الحضور، وحضرت أنا لاختطاف ابني.

اللعنة! هل هذا ما فكرت به فعلًا؟

***

الفترة الأولى بعد الطلاق صعبة، تعرضت فيها لكم هائل من الضغوط، أكثرها إيلامًا هو الضغط بابني نفسه ومحاولة استمالته لجانب أمه للاستقواء به.

انتهى زواجي في هدوء وباتفاق سلس أنهى كل شيء بشكل حضاري؛ لأن خلافنا وخلافاتنا لم تكن لتحل بشكل حضاري سوى الطلاق. توقعت علاقة هادئة توفر حياة صحية لابننا، لكن لم تمر سوى بضعة أيام واشتعلت حياتي بمشكلات

لا حصر لها، كان حمزة طرفًا فيها.

لم يكن جديدًا عليه، أن يشهد الخناقات والمشكلات. كان سبب الطلاق الرئيسي، هو إصرار طليقتي على الخناق من وراء باب مفتوح، ليشهد حمزة كل الانفعالات. في كل مرة، أحاول فيها إرجاء الخناق لبعد أن ينام، لكنها لم تستطع في أي مرة التحكم في نفسها، وحتى الباب، كانت تصر على تركه مفتوحًا، لنجد أمامًا من يشهد ويشاهد.

شعرت حينها أن هناك سياجًا يعلو بنيانه وتزداد سماكته بيني وبين ابني بعد كل مشاجرة بيني وبين أمه.

كانت آخر مشاجرة بيننا في قمة الصخب والغضب، كان مشهد حمزة مرعبًا، توقفنًا فجأة عن الصياح، ثم دخل ناحيتنا، ربتُ على كتفه بحنو، لكنه انفجر في البكاء، حاول أن يوقف بركانه الثائر، لكنه لم يستطع. عرفت حينها، أن شيئًا لن يتغير، سيعلو السياج وصولًا للسماء.

كانت كتابات طليقتي على مواقع التواصل الاجتماعي واضحة جدًا لكن من دون تصريح بقصدها، وكنت أرد بكتابات واضحة أيضًا لكن من دون تصريح. عرفت فيما بعد أن ابننا هو القارئ الأول لتلك الكتابات، برغم صعوبة المكتوب بالنسبة له، كان يقرأها ويفهمها.. ويطلق أحكام.

لم يعد حينها متقبلًا لوجودي في حياته، وبرغم الصراع والحرب الدائرة من وراء أبواب مواقع التواصل الاجتماعي المفتوحة، لم تمانع في رؤيتي لحمزة.

في صباح يوم جمعة وصلت لمدخل العمارة حيث يسكن مع أمه؛ لنتناول

الافطار سويًا في مطعم قريب. لكني حاولت خطفه في هذا اليوم، بعد أن وجهت لي أمه نظرة تحد وشماتة وهي تسلمني إياه. حينها قررت أن أسافر به، ربما لمدينة ساحلية بعيدة أو مكان بعيد أتمكن فيه من تحدي أمه والشماتة بها.

أدرك سريعًا أنه يبتعد، صرخ، بكى، حتى أنه هدد بإبلاغ الشرطة أني خطفته. لم أصدق أنه قال ذلك حقًا، ولم أتصور أن أبني سوف يبكي منهارًا لأنه معي!

على كل حال، انتهى ذلك الموقف بالعودة سريعًا دون حتى أن يجرع شربة ماء معي. من بعدها، فقد الثقة تمامًا في أن يكون وحده معي. تحول السياج إلى جدار خرساني سميك. حاولت طويلًا إصلاح ما أفسدته بعد استشارات متعددة لمتخصصين. بعد شهور من المحاولات، أصبح يقبل رؤيتي داخل سيارتي تحت العمارة دون أن أتحرك مترًا واحدًا. خلال عام، سقط الجدار ولكن ظل السياج موجودًا، يمكنني من رؤية ابني دون التفاعل معه.

***

حاولت الاتصال بأم ابني، لكنها الشبكة. وقفت في موقف لا أحسد عليه، في حين تقف تلك الحمقاء المتحمسة ضدي -لأنني رجل- كحائل بيني وبين ابني. تنتظر التأكيد على أنني لست خاطفًا، ولست وغدًا بشكل مؤقت.

مرت بضع دقائق تحاول فيها الوصول لأم ابني دون جدوى. ما هذا القهر! تمنعني هذه السيدة من اصطحاب ابني لمنزله باسم القانون والمسؤولية.

لم أشغل بالي بكل تلك الاتفاقات القانونية وهذا الهراء الذي يحدد أني مسؤول عن ملبس ومأكل ومشرب وتعليم ابني. بالطبع أنا المسؤول، هل لا بد من ورقة

حقيرة لإثبات ذلك؟

إنها لحفظ الحقوق، هكذا طلب أهلها! وتركت الورقة لمن يريد الورقة، ولكني لست ملتزمًا بها، أنا ملتزم بمسؤوليتي وأخلاقي وقبل كل ذلك محبتي لابني.

أعطيتها ما تريد من أوراق، ولم أهتم، لكني لو أعرف أن تلك الأوراق سوف تضعني في هذا الموقف مع ابني بمسمى الولاية التعليمية، لما وقعت، وربما قطعت ابهامي قبل أن أبصم.

استمرت الثوان في المرور، وتلك السيدة تنظر لي نظرات نارية مليئة بالظفر والشماتة وكأنها تقول:

- رجل سفيه، طلق زوجته ورمى ابنه، واليوم يأتي ربما ليخطف ابنه ويحرق قلب أمه المسكينة.

شعرت أني أسمع أفكارها، وأغوص في ثنايا عقلها بكل تلك الأفكار والتحفز ضدي وربما ضد كل الذكور.

صفعتها، لكمتها، صرخت في وجهها، وشتمتها، قبل أن أتلذذ بالرائحة المنبعثة من شواءها حية. هكذا تمنيت أن أفعل.

الحمد لله أنها لم تستطع قراءة أفكاري، وإلا أقامت الدنيا كلها ضدي. فأنا الأب المقهور المكلوم الممنوع من اصطحاب ابنه إلا بإذن، أقف في هذا الموقف، لكني مطلوب مني ضبط النفس وعدم التذمر وأن ألتزم الصوابية الاجتماعية والسياسية لئلا أنبس بحرف ضدها. يمكنها ببساطة أن تتهمني دون دليل، وسأصبح متهمًا حتى لو معي ألف دليل.

مرت تلك الدقائق طويلًا، تعصف بي الأفكار، وأتحفز ضد المجتمع كله بثوابته الحالية، وأزداد في كراهية تلك المرأة التي تمنع ابني عني.

فشلت العديد من المحاولات للاتصال بأم ابني من هاتفها، إلا أن اتصلت أنا بها، وفشل الاتصال في أول مرة، ونجح في الثانية.

أخبرتها بما يحدث، ثم أعطيت هاتفي للسياج العازل بيني وبين ابني. ترددت لجزء من الثانية قبل أن تأخذ الهاتف من يدي في تشكك.

أسمع أفكارها مرة أخرى، إنها تشك أني اتصلت بواحدة اتفقت معها على تلك اللعبة، وأنها تمثل دور أم ابني.

بريبة وخيبة أمل في أنها لم تعد تستطع إذلالي أكثر من تلكم الدقائق المعدودة، سلمتني ابني وهممنا بالإنصراف.

قالت ضاغطة على كل مخرج لحروفها:

- بالطبع أعتذر، لكنك تفهم تلك المسؤولية.

لكني ما زلت أسمع أفكارها، كانت تقول بداخلها:

- رجل سفيه، طلق زوجته ورمى ابنه.

(10)

طبقة حماية

لا يفكر مرتين في الجود بالصدقات والعطايا، الأمر بالنسبة له طوق نجاة لمحاولة تخليص نفسه وذويه من أي مصائب وابتلاءات محتملة. كانت تلك نيته الواضحة أمام ذاته.

حين هم لركوب سيارته الجديدة التي اشتراها منذ بضعة أشهر، وجد آثارًا تدل على من حاول حكها بجسم معدني تسبب في تلف طبقة الحماية في الرفرف الأمامي الأيمن. حينها قرر أن يكون أكثر سخاءً وأوسع كرمًا للحيلولة دون أن تتضرر سيارته.

Telegram:@mbooks90

شكر خاص

منى مجدي

هشام وهدان

عبد الرحمن محمد

فيبي نصحي